الإعجاز والتحدي

في القرآن الكريم

العلامة الكبير

السيد محمد حسين الطباطبائي

إعداد

الشيخ قاسم الهاشمي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحیم

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم

کاتب:

علامه سید محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعة:

موسسة الاعلمی للمطبوعات

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم

اشارة

نام کتاب: الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم نویسنده: سید محمد حسین طباطبائی / قاسم الهاشمی موضوع: اعجاز تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۶۰ / ۱۴۰۲ زبان: عربی تعداد جلد: ۱ ناشر: موسسة الاعلمی للمطبوعات مکان چاپ: بیروت سال چاپ: ۱۴۲۳ / ۲۰۰۲ نوبت چاپ: اوّل

المقدمة

المقدمة بسم اللّه الرّحمن الرّحیم الحمد للّه ربّ العالمین و الصلاة و السلام علی أفضل خلقه و أشرف بریّته أبی القاسم محمّد و علی آله الطاهرین. القرآن هو الناموس الإلهی الذی تکفل للناس بإصلاح الدین و الدنیا، و ضمن لهم سعادة الآخرة و الأولی، فکل آیة من آیاته منبع فیّاض بالهدایة و معدن من معادن الإرشاد و الرحمة، و کما جاء فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السّلام «القرآن عهد اللّه إلی خلقه، فقد ینبغی للمرء المسلم أن ینظر فی عهده تعالی». و غایة النظر و التدبّر فی القرآن الکریم التفکیر فی آیاته، و التماس غرائبه، و التعمّق فی أهدافه و مقاصده. و لذا نجد أنّ المفسّرین بأجمعهم یعقدون بحثا کاملا فی علوم القرآن قبل الدخول فی تفسیر الآیات القرآنیة، و یعتبرون ذلک مفتاحا و مدخلا أساسیا فی التعرف علی مکنونات الآیات القرآنیة، ثمّ نجدهم یفصّلون القول فی بعض البحوث المهمّة فی هذا الباب کبحث المحکم و المتشابه و التأویل و ذلک لأهمیّته فی تفسیر القرآن الکریم، و لکل واحد منهم رأیه و مبناه فی هذا الباب و ممّن أحسن و أجاد فی هذا الباب العلّامة الطباطبائی قدس سره فنراه قد وضع النقاط علی الحروف و أوضح ما کان غامضا علی المفسرین، و برزت له آراء و نظریات متعدّدة فی هذا الباب استطاع من خلالها أن یرد علی کل الشبهات التی وجهت علی معالم القرآن الکریم و واحدة من تلک المعالم (کیفیّة جمع القرآن) (و فی زمن من جمع القرآن) (و هل وقع تحریف الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶ فی القرآن) (و هل وقع زیادة أو نقصان فی القرآن) و غیرها من الشبهات و الإثارات حول هذا المنهج المعرفی، نجده قد تصدی لکل تلک الإثارات بأجوبة وافیة مقنعة و من نفس القرآن الکریم، و بإمکانکم (قرّاءنا الأعزاء) مطالعة هذه البحوث فی هذا المجلد للاستفادة منها، معتقدین أن من اللازم علی کل مؤمن قراءة هذه البحوث و التزوّد منها للدفاع عن کیان القرآن الکریم. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷

الفصل الأول التحدی بالإعجاز

الفصل الأول التحدی بالإعجاز اعلم: أنّ دعوی القرآن أنها آیة معجزة بهذا التحدّی الذی أبدته هذه الآیة و هی وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (البقرة/ ۲۳) تنحل بحسب الحقیقة إلی دعویین، و هما دعوی ثبوت أصل الإعجاز و خرق العادة الجاریة و دعوی أنّ القرآن مصداق من مصادیق الإعجاز و معلوم أنّ الدعوی الثانیة تثبت بثبوتها الدعوی الأولی، و القرآن أیضا یکتفی بهذا النمط من البیان و یتحدی بنفسه فیستنتج به کلتا النتیجتین غیر أنّه یبقی الکلام علی کیفیّة تحقّق الإعجاز مع اشتماله علی ما لا تصدقه العادة الجاریة فی الطبیعة من استناد المسببات إلی أسبابها المعهودة المشخصة من غیر استثناء فی حکم السببیّة أو تخلّف و اختلاف فی قانون العلیّة، و القرآن یبیّن حقیقة الأمر و یزیل الشبهة فیه. فالقرآن یشدق فی بیان الأمر من جهتین: الأولی: أنّ الإعجاز ثابت و من مصادیقه القرآن المثبت لأصل الإعجاز و لکونه منه بالتحدّی. الثانیة: أنّه ما هو حقیقة الإعجاز و کیف یقع فی الطبیعة أمر یخرق عادتها و ینقض کلیّتها ... لا ریب فی أنّ القرآن یتحدّی

بالإعجاز فى آيات كثيرهٔ مختلفهٔ مكيّهٔ و مدنيهٔ تدلّ جميعها على أنّ القرآن آيهٔ معجزهٔ خارقهٔ حتّى أنّ الآيهٔ السابقهٔ أعنى قوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ٨ مِثْلِهِ الآيهٔ، أى من مثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استدلال على كون القرآن معجزهٔ بالتحدّى على إتيان سورهٔ نظيرهٔ سورهٔ من مثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا أنّه استدلال على النبوّهٔ مستقيما و بلا واسطهٔ، و الدليل عليه قوله تعالى فى أوّلها: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا و لم يقل و إن كنتم فى ريب من رسالهٔ عبدنا، فجميع التحدّيات الواقعهٔ فى القرآن نحو استدلال على كون القرآن معجزهٔ خارقهٔ من عند اللّه و الآيات المشتملهٔ على التحدّى مختلفهٔ فى العموم و الخصوص و من أعمّها تحديا قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «١»، و الآيهٔ مكيّهٔ و فيها من عموم التحدّى ما لا يرتاب فيه ذو مسكهٔ. فلو كان التحدّى ببلاغهٔ بيان القرآن و فصاحهٔ أسلوبه فقط لم يتعد التحدى قوما خاصا و هم العرب العرباء من الجاهليين و المخضرمين قبل اختلاط اللسان و فساده، و قد قرع بالآيهٔ أسماع الإنس و الجن. و كذا غير البلاغهٔ و الجزالهٔ من كل صفهٔ خاصهٔ اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية و الأخلاق الفاضلهٔ و الأحكام التشريعيهٔ و الأخبار المغيبهٔ و معارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير ذلك، كل واحد منها مما يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم، فإطلاق التحدّى على الثقلين ليس إلّا فى جميع ما يمكن فيه التفاضل فى الصفات. فالقرآن آيهٔ للبليغ فى بلاغته و فصاحته، و للحكيم فى حكمته، و للعالم فى علمه و للاجتماعى فى اجتماعه، و للمقننين فى تقنينهم و للسياسيين فى سياستهم، و للحكام فى حكومتهم، و لجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا كالغيب و الاختلاف فى الحكم و العلم و البيان. و من هنا يظهر أنّ القرآن يدعى عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازا لكل فرد من الإنس و الجن من عامّهٔ أو خاصّهٔ أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأهٔ أو فاضل بارع فى فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول، فإن الإنسان مفطور على الشعور بالفضيلهٔ و إدراك الزيادهٔ

(١) الإسراء- ٨٨. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ٩ و النقيصهٔ فيها، فلكل إنسان أن يتأمّل ما يعرفه من الفضيلهٔ فى نفسه أو فى غيره من أهله ثمّ يقيس ما أدركه منها إلى ما يشتمل عليه القرآن فيقضى بالحق و النصفهٔ، فهل يتأتى للقوّهٔ البشريّهٔ أن تختلق معارف إلهيهٔ مبرهنهٔ تقابل ما أتى به القرآن و تماثله فى الحقيقهٔ؟ و هل يمكنها أن تأتى بأخلاق مبنيّهٔ على أساس الحقائق تعادل ما أتى به القرآن فى الصفاء و الفضيلهٔ؟ و هل يمكنها أن تشرّع أحكاما تامّهٔ فقهيّهٔ تحصى جميع أعمال البشر من غير اختلاف يؤدى إلى التناقض مع حفظ روح التوحيد و كلمهٔ التقوى فى كل حكم و نتيجته، و سريان الطهارهٔ فى أصله و فرعه؟ و هل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب و الإتقان الغريب من رجل أمّى لم يتربّ إلّا فى حجر قوم حظهم من الإنسانيّهٔ على مزاياها التى لا تحصى و كمالاتها التى لا تغيّا أن يرتزقوا بالغارات و الغزوات و نهيب الأموال و أن يئدوا البنات و يقتلوا الأولاد خشيهٔ إملاق و يفتخروا بالآباء و ينكحوا الأمهات و يتباهوا بالفجور و يذموا العلم و يتظاهروا بالجهل و هم على أنفتهم و حميّتهم الكاذبهٔ أذلاء لكل مستذل و خطفهٔ لكل خاطف فيوما لليمن و يوما للحبشهٔ و يوما للروم و يوما للفرس؟ فهذا حال عرب الحجاز فى الجاهليّهٔ. و هل يجترئ عاقل على أن يأتى بكتاب يدعيه هدى للعالمين ثمّ يودعه أخبارا فى الغيب ممّا مضى و يستقبل و فيمن خلت من الأمم و فيمن سيقدم منهم لا بالواحد و الاثنين فى أبواب مختلفهٔ من القصص و الملاحم و المغيبات المستقبلهٔ ثمّ لا يتخلّف شيء منها عن صراط الصدق؟. و هل يتمكّن إنسان و هو أحد أجزاء نشأهٔ الطبيعهٔ الماديّهٔ، و الدار دار التحوّل و التكامل، أن يداخل فى كل شأن من شئون العالم الإنسانى و يلقى إلى الدنيا معارف و علوما و قوانين و حكما و مواعظ و أمثالا و قصصا فى كل ما دقّ و جل ثمّ لا يختلف حاله فى شيء منها فى الكمال و النقص و هى متدرجهٔ الوجود متفرّقهٔ الإلقاء و فيها ما ظهر ثمّ تكرّر و فيها فروع متفرّعهٔ على أصولها؟ هذا مع ما نراه أن كلّ إنسان لا يبقى من حيث كمال العمل و نقصه على حال واحدهٔ. فالإنسان اللبيب القادر على تعقّل هذه المعانى لا يشكّ فى أنّ هذه المزايا الكليّهٔ و غيرها ممّا يشتمل عليه القرآن الشريف كلها فوق القوّهٔ البشريّهٔ الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١٠ و وراء الوسائل الطبيعيّهٔ الماديّهٔ و إن لم

يقدر على ذلك فلم يضل فى إنسانيّته و لم ينس ما يحكم به وجدانه الفطرى أن يراجع فيما لا يحسن اختباره و يجهل مأخذه إلى أهل الخبرة به. فإن قلت: ما الفائدة فى توسعة التحدّى إلى العامّة و التعدّى عن حومة الخاصّة فإنّ العامّة سريعة الانفعال للدعوة و الإجابة لكل صنيعة و قد خضعوا لأمثال الباب و البهاء و القاديانى و المسيلمة على أن ما أتوا به و استدلّوا عليه أشبه بالهجر و الهذيان منه بالكلام. قلت: هذا هو السبيل فى عموم الإعجاز و الطريق الممكن فى تمييز الكمال و التقدّم فى أمر يقع فيه التفاضل و السباق، فإن أفهام الناس مختلفة اختلافا ضروريّا و الكمالات كذلك، و النتيجة الضروريّة لهاتين المقدّمتين أن يدرك صاحب الفهم العالى و النظر الصائب و يرجع من هو دون ذلك فهما و نظرا إلى صاحبه، و الفطرة حاكمة و الغريزة قاضية. و لا يقبل شىء ممّا يناله الإنسان بقواه المدركة و يبلغه فهمه العموم و الشمول لكلّ فرد فى كلّ زمان و مكان بالوصول و البلوغ و البقاء إلّا ما هو من سنخ العلم و المعرفة على الطريقة المذكورة، فإن كلّ ما فرض آية معجزة غير العلم و المعرفة فإنّما هو موجود طبيعى أو حادث حسّى محكوم بقوانين المادّة محدود بالزمان و المكان فليس بمشهود إلّا لبعض أفراد الإنسان دون بعض و لو فرض محالا أو كالمحال عمومه لكلّ فرد منه فإنّما يمكن فى مكان دون جميع الأمكنة، و لو فرض اتساعه لكلّ مكان لم يمكن اتساعه لجميع الأزمنة و الأوقات. فهذا ما تحدى به القرآن تحديا عاما لكلّ فرد فى كلّ مكان و فى كل زمان ... الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱

الفصل الثانى التحدّى بالعلم

الفصل الثانى التحدّى بالعلم و قد تحدّى بالعلم و المعرفة خاصّة بقوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «۱»، و قوله: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ «۲»، إلى غير ذلك من الآيات، فإنّ الإسلام كما يعلمه و يعرفه كل من سار فى متن تعليماته من كليّاته التى أعطاها القرآن و جزئياته التى أرجعها إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنحو قوله: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۳»، و قوله تعالى: لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ «۴»، و غير ذلك متعرض للجليل و الدقيق من المعارف الإلهيّة «الفلسفيّة» و الأخلاق الفاضلة و القوانين الدينيّة الفرعيّة من عبادات و معاملات و سياسات و اجتماعيّات و كل ما يمسه فعل الإنسان و عمله كل ذلك على أساس الفطرة و أصل التوحيد بحيث ترجع التفاصيل إلى أصل التوحيد بالتحليل، و يرجع الأصل إلى التفاصيل بالتركيب. و قد بيّن بقاءها جميعا و انطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور و كرورها بقوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۵»، و قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ

(____ ۱) النحل- ۸۹. (۲) الأنعام- ۵۹. (۳) الحشر- ۷. (۴) النساء- ۱۰۵. (۵) فصلت ۴۱- ۴۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲

لَحافِظُونَ «۱»، فهو كتاب لا يحكم عليه حاكم النسخ و لا يقضى عليه قانون التحوّل و التكامل. فإن قلت: قد استقرّت أنظار الباحثين عن الاجتماع و علماء التقنين اليوم على وجوب تحوّل القوانين الوضعيّة الاجتماعيّة بتحوّل الاجتماع و اختلافها باختلاف الأزمنة و الأوقات و تقدّم المدنيّة و الحضارة. قلت: سيجىء البحث عن هذا الشأن و الجواب عن الشبهة فى تفسير قوله تعالى: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً «۲»، الآية. و جملة القول و ملخّصه أنّ القرآن يبنى أساس التشريع على التوحيد الفطرى و الأخلاق الفاضلة الغريزية و يدعى أن التشريع يجب أن ينمو من بذر التكوين و الوجود، و هؤلاء الباحثون يبنون نظرهم على تحول الاجتماع مع إلغاء المعنويات من معارف التوحيد و فضائل الأخلاق، فكلمتهم جامدة على سير التكامل الاجتماعى المادى العادم لفضيلة الروح، و كلمة اللّه هى العليا.

(____ ۱) الحجر- ۹. (۲) البقرة- ۲۱۳.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳

الفصل الثالث التحدّى بمن أنزل عليه القرآن الكريم

الفصل الثالث التحدّى بمن أنزل عليه القرآن الكريم و قد تحدّى بالنبى الأمىّ الذى جاء بالقرآن المعجز فى لفظه و معناه و لم يتعلّم عند معلّم و لم يتربّ عند مربّ بقوله تعالى: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۱»، فقد كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بينهم و هو أحدهم لا يتسامى فى فضل و لا ينطق بعلم حتّى لم يأت بشىء من شعر أو نثر نحوا من أربعين سنة و هو ثلثا عمره لا يحوز تقدّما و لا يرد عظيمة من عظائم المعالى ثمّ أتى بما أتى به دفعة فأتى بما عجزت عنه فحولهم وكلت دونه ألسنة بلغائهم، ثمّ بثه فى أقطار الأرض فلم يجترئ على معارضته معارض من عالم أو فاضل أو ذى لب و فطانة. و غاية ما أخذوه عليه: أنّه سافر إلى الشام للتجارة فتعلم هذه القصص ممّن هناك من الرهبان و لم تكن أسفاره إلى الشام إلّا مع عمّه أبى طالب قبل بلوغه و إلّا مع ميسرة مولى خديجة و سنّه يومئذ خمسة و عشرون و هو مع من يلازمه فى ليله و نهاره، و لو فرض محالا ذلك فما هذه المعارف و العلوم؟ و من أين هذه الحكم و الحقائق؟ و ممّن هذه البلاغة فى البيان الذى خضعت له الرقاب وكلت دونه الألسن الفصاح؟. و ما أخذوه عليه أنّه كان يقف على قين بمكّة من أهل الروم كان يعمل

(____ ۱) يونس- ۱۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴ السيوف و يبيعها فأنزل اللّه سبحانه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۱». و ما قالوا عليه أنّه يتعلّم بعض ما يتعلّم من سلمان الفارسى و هو من علماء الفرس عالم بالمذاهب و الأديان مع أنّ سلمان إنّما آمن به فى المدينة، و قد نزل أكثر القرآن بمكّة و فيه من جميع المعارف الكليّة و القصص ما نزلت منها بالمدينة بل أزيد فما الذى زاده إيمان سلمان و صحابته؟. على أنّ من قرأ العهدين و تأمّل ما فيهما ثمّ رجع إلى ما قصّه القرآن من تواريخ الأنبياء السالفين و أممهم رأى أنّ التاريخ غير التاريخ و القصّة غير القصّة، ففيهما عثرات و خطايا لأنبياء اللّه الصالحين تنبو الفطرة، و تتنفر من أن تنسبها إلى المتعارف من صلحاء الناس و عقلائهم و القرآن يبرئهم منها، و فيها أمور أخرى لا يتعلّق بها معرفة حقيقيّة و لا فضيلة خلقيّة و لم يذكر القرآن منها إلّا ما ينفع الناس فى معارفهم و أخلاقهم و ترك الباقى و هو الأكثر ...

(____ ۱) النحل- ۱۰۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵

الفصل الرابع تحدّى القرآن بالإخبار عن الغيب

الفصل الرابع تحدّى القرآن بالإخبار عن الغيب و قد تحدّى بالإخبار عن الغيب بآيات كثيرة، منها إخباره بقصص الأنبياء السالفين و أممهم كقوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا «۱»، الآية، و قوله تعالى بعد قصّة يوسف: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ «۲»، و قوله تعالى فى قصّة مريم: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ «۳»، و قوله تعالى: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ «۴»، إلى غير ذلك من الآيات. و منها الإخبار عن الحوادث المستقبلة كقوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ «۵»، و قوله تعالى فى رجوع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مكّة بعد الهجرة: إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ «۶»، و قوله تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ (____ ۱) هود- ۴۹. (۲) يوسف- ۱۰۲. (۳) آل عمران- ۴۴. (۴) مريم- ۳۴. (۵) الروم- ۲- ۳. (۶) القصص- ۸۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ «۱»، الآية، و قوله تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ «۲»، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ «۳»، و قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۴»، و آيات أخر كثيرة فى وعد المؤمنين و وعيد كفّار مكّة و مشركيها. و من هذا الباب آيات أخر فى الملاحم نظير قوله تعالى: وَ حَرامٌ

عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ «۵»، و قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ «۶»، و قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ «۷»، و من هذا الباب قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ «۸»، و قوله تعالى: وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ «۹»، و قوله تعالى: وَ الْجِبالَ أَوْتاداً «۱۰»، ممّا يبتنى حقيقة القول فيها على حقائق علميّة مجهولة عند النزول حتّى كشف الغطاء عن وجهها بالأبحاث العلميّة التى وفّق الإنسان لها فى هذا العصر. و من هذا الباب (و هو من مختصّات هذا التفسير الباحث عن آيات القرآن باستنطاق بعضها ببعض و استشهاد بعضها على بعض) ما فى سورة المائدة من قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

(______________________________
۱) الفتح- ۲۷. (۲) الفتح- ۱۵. (۳) المائدة- ۷۰. (۴) الحجر- ۹. (۵) الأنبياء ۹۵- ۹۷. (۶) النور- ۵۵. (۷) الأنعام- ۶۵. (۸) الحجر- ۲۲. (۹) الحجر- ۱۹. (۱۰) النبأ- ۷.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۷ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ «۱»، الآية، و ما فى سورة يونس من قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ «۲»، إلى آخر الآيات، و ما فى سورة الروم من قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها «۳»، الآية، إلى غير ذلك من الآيات التى تنبئ عن الحوادث العظيمة التى تستقبل الأمة الإسلاميّة أو الدنيا عامة بعد عهد نزول القرآن (______________________________. ۱)

المائدة- ۵۴. (۲) يونس- ۴۷. (۳) الروم- ۳۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۸

الفصل الخامس تحدّى القرآن بعدم الاختلاف فيه

الفصل الخامس تحدّى القرآن بعدم الاختلاف فيه و قد تحدّى أيضا بعدم وجود الاختلاف فيه، قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱» فإنّ من الضرورى أنّ النشأة نشأة المادّة و القانون الحاكم فيها قانون التحوّل و التكامل فما من موجود من الموجودات التى هى أجزاء هذا العالم إلّا و هو متدرّج الوجود متوجّه من الضعف إلى القوّة و من النقص إلى الكمال فى ذاته و جميع توابع ذاته و لواحقه من الأفعال و الآثار و من جملتها الإنسان الذى لا يزال يتحوّل و يتكامل فى وجوده و أفعاله و آثاره التى منها آثاره التى يتوسّل إليها بالفكر و الإدراك، فما من واحد منّا إلّا و يرى نفسه كل يوم أكمل من أمس و لا يزال يعثر فى الحين الثانى على سقطات فى أفعاله و عثرات فى أقواله الصادرة منه فى الحين الأوّل، هذا أمر لا ينكره من نفسه إنسان ذو شعور. و هذا الكتاب جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجوما و قرأه على الناس قطعا قطعا فى مدّة ثلاث و عشرين سنة فى أحوال مختلفة و شرائط متفاوتة فى مكّة و المدينة فى الليل و النهار و الحضر و السفر و الحرب و السلم فى يوم العسرة و فى يوم الغلبة و يوم الأمن و يوم الخوف، و لإلقاء المعارف الإلهيّة و تعليم الأخلاق الفاضلة و تقنين الأحكام الدينيّة فى جميع أبواب الحاجة و لا يوجد فيه أدنى اختلاف فى النظم المتشابه، كتابا متشابها مثانى و لم يقع فى المعارف التى

(______________________________
۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۹ ألقاها و الأصول التى أعطاها اختلاف بتناقض بعضها مع بعض و تنافى شىء منها مع آخر، فالآية تفسّر الآية و البعض يبيّن البعض، و الجملة تصدّق الجملة كما قال أمير المؤمنين على عليه السّلام (ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض) «۱» و لو كان من عند غير اللّه لاختلف النظم فى الحسن و البهاء و القول فى الشداقة و البلاغة و المعنى من حيث الفساد و الصحّة و من حيث الإتقان و المتانة. فإن قلت: هذه مجرّد دعوى لا تتكى على دليل و قد أخذ على القرآن مناقضات و إشكالات جمة ربّما ألّف فيه التأليفات، و هى إشكالات لفظيّة ترجع إلى قصوره فى جهات البلاغة و مناقضات معنويّة تعود إلى خطئه فى آرائه و أنظاره و تعليماته، و قد أجاب عنها المسلمون بما لا يرجع فى الحقيقة إلّا إلى التأويلات التى يحترزها الكلام الجارى على سنن الاستقامة و

ارتضاء الفطرة السليمة. قلت: ما أشير إليه من المناقضات و الإشكالات موجودة فى كتب التفسير و غيرها مع أجوبتها و منها هذا الكتاب، فالإشكال أقرب إلى الدعوى الخالية عن البيان. و لا تكاد تجد فى هذه المؤلفات التى ذكرها المستشكل شبهة أوردوها أو مناقضة أخذوها إلّا و هى مذكورة فى مسفورات المفسّرين مع أجوبتها فأخذوا الإشكالات و جمعوها و رتبوها و تركوا الأجوبة و أهملوها، و نعم ما قيل: لو كانت عين الحب متّهمة فعين البغض أولى بالتهمة. فإن قلت: فما تقول فى النسخ الواقع فى القرآن و قد نص عليه القرآن نفسه فى قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها «۲»، و قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ «۳»، و هل النسخ إلّا اختلاف فى النظر لو سلّمنا أنّه ليس من قبيل المناقضة فى القول؟. (____۱) نهج البلاغة. (۲) البقرة- ۱۰۶. (۳) النحل- ۱۰۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۰ قلت: النسخ كما أنّه ليس من المناقضة فى القول و هو ظاهر كذلك ليس من قبيل الاختلاف فى النظر و الحكم و إنّما هو ناش من الاختلاف فى المصداق من حيث قبوله انطباق الحكم يوما لوجود مصلحته فيه و عدم قبوله الانطباق يوما آخر لتبدّل المصلحة من مصلحة أخرى توجب حكما آخر، و من أوضح الشهود على هذا أنّ الآيات المنسوخة الأحكام فى القرآن مقترنة بقرائن لفظيّة تومئ إلى أن الحكم المذكور فى الآية سينسخ كقوله تعالى: يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا «۱» (انظر إلى التلويح الذى تعطيه الجملة الأخيرة) و كقوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً إلى أن قال فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً إلى أن قال فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ «۲» حيث تمّم الكلام بما يشعر بأن الحكم مؤجّل (____... ۱) النساء- ۱۴. (۲) البقرة- ۱۰۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۱

الفصل السادس التحدّى بالبلاغة

الفصل السادس التحدّى بالبلاغة و قد تحدّى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «۱»، و الآية مكيّة، و قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ «۲»، و الآية أيضا مكيّة و فيها التحدّى بالنظم و البلاغة فإنّ ذلك هو الشأن الظاهر من شئون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أنّ العرب العرباء بلغت من البلاغة فى الكلام مبلغا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدّمة عليهم و المتأخرة عنهم و وطئوا موطنا لم تطأه أقدام غيرهم فى كمال البيان و جزالة النظم و وفاء اللفظ و رعاية المقام و سهولة المنطق. و قد تحدّى عليهم القرآن بكلّ تحدّ ممكن ممّا يثير الحمية و يوقد نار الأنفة و العصبيّة، و حالهم فى الغرور ببضاعتهم و الاستكبار عن الخضوع للغير فى صناعتهم ممّا لا يرتاب فيه، و قد طالت مدّة التحدّى و تمادى زمان الاستنهاض فلم يجيبوه إلّا بالتجافى و لم يزدهم إلّا العجز و لم يكن منهم إلّا الاستخفاء و الفرار، كما قال تعالى: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ (____۱) هود- ۱۳- ۱۴. (۲) يونس- ۳۸- ۳۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۲ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ «۱». و قد مضى من القرون و الأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرنا و لم يأت بما يناظره آت و لم يعارضه أحد بشىء إلّا أخزى نفسه و افتضح فى أمره. و قد ضبط النقل بعض هذه المعارضات و المناقشات، فهذا مسيلمة عارض سورة الفيل بقوله: «الفيل ما الفيل و ما أدراك ما الفيل له ذنب و بيل و خرطوم طويل» و فى كلام له فى الوحى يخاطب السجاح النبية «فنولجه فيكن إيلاجا، و نخرجه منكن إخراجا» فانظر إلى هذه الهذيانات و اعتبر، و هذه سورة عارض بها الفاتحة بعض النصارى «الحمد للرحمن ربّ الأكوان، الملك الديان لك العبادة و بك المستعان اهدنا

صراط الإيمان» إلى غير ذلك من التقوّلات. فإن قلت: ما معنى كون التأليف الكلامى بالغا إلى مرتبة معجزة للإنسان و وضع الكلام ممّا سمحت به قريحة الإنسان؟ فكيف يمكن أن يترشّح من القريحة ما لا تحيط به و الفاعل أقوى من فعله و منشئ الأثر محيط بأثره؟. و بتقريب آخر، الإنسان هو الذى جعل اللفظ علامة دالّة على المعنى لضرورة الحاجة الاجتماعيّة إلى تفهيم الإنسان ما فى ضميره لغيره فخاصّية الكشف عن المعنى فى اللفظ خاصّية وضعيّة اعتباريّة مجعولة للإنسان، و من المحال أن يتجاوز هذه الخاصّة المترشّحة عن قريحة الإنسان حد قريحته فتبلغ مبلغا لا تسعه طاقة القريحة، فمن المحال حينئذ أن يتحقّق فى اللفظ نوع من الكشف لا تحيط به القريحة و إلّا كانت غير الدلالة الوضعيّة الاعتباريّة، مضافا إلى أن التراكيب الكلاميّة لو فرض أن بينها تركيبا بالغا حد الإعجاز كان معناه أنّ كل معنى من المعانى المقصودة ذو تراكيب كلامية مختلفة فى النقص و الكمال و البلاغة و غيرها، و بين تلك التراكيب تركيب هو أرقاها و أبلغها لا تسعه طاقة البشر، و هو التركيب المعجز، و لازمه أن يكون فى كلّ معنى مطلوب تركيب واحد إعجازى مع أنّ القرآن كثيرا ما يورد فى المعنى الواحد بيانات مختلفة و تراكيب متفرّقة، و هو فى

(______________________________ ۱) هود- ۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۳

القصص واضح لا ينكر و لو كانت تراكيبه معجزة لم يوجد منها فى كلّ معنى مقصود إلّا واحد لا غير. قلت: هاتان الشبهتان و ما شاكلهما هى الموجبة لجمع من الباحثين فى إعجاز القرآن فى بلاغته أن يقولوا بالصرف، و معنى الصرف أنّ الإتيان بمثل القرآن أو سورة واحدة منه محال على البشر لمكان آيات التحدّى و ظهور العجز من أعداء القرآن منذ قرون، و لكن لا لكون التأليفات الكلاميّة التى فيها فى نفسها خارجة عن طاقة الإنسان و فائقة على القوّة البشريّة، مع كون التأليفات جميعا أمثالا لنوع النظم الممكن للإنسان، بل لأنّ اللّه سبحانه يصرف الإنسان عن معارضتها و الإتيان بمثلها بالإرادة الإلهيّة الحاكمة على إرادة الإنسان حفظا لآية النبوّة و وقاية لحمى الرسالة. و هذا قول فاسد لا ينطبق على ما يدلّ عليه آيات التحدّى بظاهرها كقوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ «۱»، الآية، فإنّ الجملة الأخيرة ظاهرة فى أنّ الاستدلال بالتحدّى إنّما هو على كون القرآن نازلا لا كلاما تقوّله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إنّ نزوله إنّما هو بعلم اللّه لا بإنزال الشياطين كما قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «۲»، و قوله تعالى: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ. وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ «۳»، و الصرف الذى يقولون به إنّما يدلّ على صدق الرسالة بوجود آية هى الصرف، لا على كون القرآن كلاما للّه نازلا من عنده، و نظير هذه الآية الآية الأخرى، و هى قوله: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ «۴»، الآية، فإنّها ظاهرة فى أنّ الذى يوجب استحالة إتيان البشر بمثل القرآن و ضعف قواهم و قوى كل من يعينهم على

(______________________________ ۱) هود- ۱۳ و ۱۴. (۲) الطور- ۳۴.

(۳) الشعراء- ۲۱۲. (۴) يونس- ۳۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۴ ذلك من تحمّل هذا الشأن هو أنّ للقرآن تأويلا لم يحيطوا بعلمه فكذّبوه، و لا يحيط به علما إلّا اللّه فهو الذى يمنع المعارض عن أن يعارضه لا أنّ اللّه سبحانه يصرفهم عن ذلك مع تمكّنهم منه لو لا الصرف بإرادة من اللّه تعالى. و كذا قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، الآية، فإنّه ظاهر فى أنّ الذى يعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن إنّما هو كونه فى نفسه على صفة عدم الاختلاف لفظاً و معنى و لا يسمع لمخلوق أن يأتى بكلام غير مشتمل على الاختلاف، لا أنّ اللّه صرفهم عن مناقضته بإظهار الاختلاف الذى فيه هذا، فما ذكروه من أنّ إعجاز القرآن بالصرف كلام لا ينبغى الركون إليه. و أمّا الإشكال باستلزام الإعجاز من حيث البلاغة المحال بتقريب أنّ البلاغة من صفات الكلام الموضوع و وضع الكلام من آثار القريحة الإنسانيّة فلا يمكن أن يبلغ من الكمال حدّا لا تسعه طاقة القريحة و هو مع ذلك معلول لها لا لغيرها، فالجواب عنه أن الذى يستند من الكلام إلى قريحة الإنسان إنّما هو كشف اللفظ المفرد عن معناه و أمّا سرد الكلام و نضد الجمل بحيث يحاكى جمال المعنى المؤلف و هيئته على ما هو عليه فى الذهن بطبعه حكاية تامّة أو

ناقصة و إراءة واضحة أو خفيّة، و كـذا تنظيم الصورة العلميـة فى الذهن بحيث يوافق الواقع فى جميع روابطه و مقدّماته و مقارناته و لواحقه أو فى كثير منها أو فى بعضها دون بعض فإنّما هو أمر لا ـ يرجع إلى وضع الألفاظ بـل إلى نوع مهارة فى صناعة البيان و فن البلاغـة تسمح به القريحة فى سرد الألفاظ و نظم الأدوات اللفظيّة و نوع لطف فى الذهن يحيط به القوّة الذاهنة على الواقعة المحكيّة بأطرافها و لوازمها و متعلّقاتها. فههنا جهات ثلاث يمكن أن تجتمع فى الوجود أو تفترق فربّما أحاط إنسان بلغة من اللغات فلا يشذّ عـن علمـه لفـظ لكنّـه لا ـ يقـدر على التهجى و التكلّـم، و ربّمـا تمهّر الإنسـان فى البيـان و سـرد الكلام لكـن لا ـ علـم له (______________________________ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۵ بالمعارف و المطالب فيعجز عن التكلّم فيها بكلام حافظ لجهات المعنى حاك لجمال صورته التى هو عليها فى نفسه، و ربّما تبحّر الإنسان فى سلسلة من المعارف و المعلومات و لطفت قريحته و رقّت فطرته لكن لا يقدر على الإفصاح عن ما فى ضميره، و عىّ عن حكاية ما يشاهده من جمال المعنى و منظره البهيج. فهذه أمور ثلاثة: أوّلها راجع إلى وضع الإنسان بقريحته الاجتماعية و الثانى و الثالث راجعان إلى نوع من لطف القوّة المدركة، و من البيّن أنّ إدراك القوى المدركة منا محدودة مقدّرة لا تقدر على الإحاطة بتفاصيل الحوادث الخارجيّة و الأمور الواقعيّة بجميع روابطها، فلسنا على أمن من الخطأ قط فى وقت من الأوقات، و مع ذلك فالاستكمال التدريجى الذى فى وجودنا أيضا يوجب الاختلاف التدريجى فى معلوماتنا أخذا من النقص إلى الكمال فأى خطيب أشدق و أى شاعر مفلق فرضته لم يكن ما يأتيه فى أوّل أمره موازنا لما تسمح به قريحته فى أواخر أمره؟ فلو فرضنا كلاما إنسانيّا أى كلام فرضناه لم يكن فى مأمن من الخطأ لفرض عدم اطلاع متكلمه بجميع أجزاء الواقع و شرائطه (أولا) و لم يكن على حدّ كلامه السابق و لا ـ على زنة كلامه اللاحق بل و لا أوّله يساوى آخره و إن لم نشعر بذلك لدقّة الأمر، لكن حكم التحول و التكامل عام (ثانيا) و على هذا فلو عثرنا على كلام فصل لا هزل فيه (و جدّ الهزل هو القول بغير علم محيط) و لا اختلاف يعتريه لم يكن كلاما بشريّا، و هو الذى يفيده القرآن بقوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱» الآية، و قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ «۲»، انظر إلى موضع القسم بالسماء و الأرض المتغيرتين و المعنى المقسم به فى عدم تغيّره و اتكائه على حقيقة ثابتة هى تأويله (و سيأتى ما يراد فى القرآن من لفظ التأويل) و قوله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۳»، و قوله تعالى: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا (______________________________ ۱) النساء- ۸۲. (۲) الطارق- ۱۴. (۳) البروج- ۲۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۶ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۱» و قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۲»، فهذه الآيات و نظائرها تحكى عن اتكاء القرآن فى معانيه على حقائق ثابتة غير متغيّرة و لا متغيّر ما يتكى عليها. إذا عرفت ما مرّ علمت أن استناد وضع اللغة إلى الإنسان لا يقتضى أن لا يوجد تأليف كلامى فوق ما يقدر عليه الإنسان الواضع له، و ليس ذلك إلّا كالقول بأنّ القين الصانع للسيوف يجب أن يكون أشجع ممن يستعملها و واضع النرد و الشطرنج يجب أن يكون أمهر ممن يلعب بهما و مخترع العود يجب أن يكون أقوى ممن يضرب بها. فقد تبيّن من ذلك كلّه أنّ البلاغة التامّة معتمدة على نوع من العلم المطابق للواقع من جهة مطابقة اللفظ للمعنى و من جهة مطابقة المعنى المعقول للخارج الذى تحكيه الصورة الذهنيّة. أمّا اللفظ فأن يكون الترتيب الذى بين أجزاء اللفظ بحسب الوضع مطابقا للترتيب الذى بين أجزاء المعنى المعبّر عنه باللفظ بحسب الطبع فيطابق الوضع الطبع كما قال الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز. و أمّا المعنى فأن يكون فى صحّته و صدقه معتمدا على الخارج الواقع بحيث لا يزول عمّا هو عليه من الحقيقة، و هذه المرتبة هى التى تتكى عليها المرتبة السابقة، و كم من هزل بليغ فى هزليّته لكنّه لا يقاوم الجد، و كم من كلام بليغ مبنى على الجهالة لكنّه لا يعارض و لا يسعه أن يعارض الحكمة، و الكلام الجامع بين عذوبة اللفظ و جزالة الأسلوب و بلاغة المعنى و حقيقة الواقع هو أرقى الكلام. و إذا كان الكلام قائما على أساس الحقيقة و منطبق المعنى عليها تمام الانطباق لم يكذّب الحقائق الأخر و لم تكذبه فإن

الحق مؤتلف الأجزاء (________________________________ ۱) الزخرف-

۴. (۲) الواقعة- ۷۹. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۲۷ و متّحد الأرکان لا یبطل حق حقا، و لا یکذب صدق صدقا، و الباطل هو الذی ینافی الباطل و ینافی الحق، انظر إلی مغزی قوله سبحانه و تعالی: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ «۱»، فقد جعل الحق واحدا لا تفرق فیه و لا تشتت، و انظر إلی قوله تعالی: وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ «۲»، فقد جعل الباطل متشتّتا و مشتّتا و متفرّقا و مفرقا. و إذا کان الأمر کذلک فلا یقع بین أجزاء الحق اختلاف بل نهایة الائتلاف، یجر بعضه إلی بعض، و ینتج بعضه البعض کما یشهد بعضه علی بعض و یحکی بعضه البعض. و هذا من عجیب أمر القرآن فإن الآیة من آیاته لا تکاد تصمت عن الدلالة و لا تعقم عن الإنتاج، کلما ضمت آیة إلی آیة مناسبة أنتجت حقیقة من أبکار الحقائق ثمّ الآیة الثالثة تصدقها و تشهد بها، هذا شأنه و خاصّته و ستری فی خلال البیانات فی هذا الکتاب نبذا من ذلک علی أنّ الطریق متروک غیر مسلوک و لو أنّ المفسّرین ساروا هذا المسیر لظهر لنا إلی الیوم ینابیع من بحاره العذبة و خزائن من أثقاله النفیسة. فقد اتّضح بطلان الإشکال من الجهتین جمیعا فإنّ أمر البلاغة المعجزة لا یدور مدار اللفظ حتّی یقال إنّ الإنسان هو الواضع للکلام فکیف لا یقدر علی أبلغ الکلام و أفصحه و هو واضح، أو یقال إن أبلغ الترکیبات المتصوّرة ترکیب واحد من بینها فکیف یمکن التعبیر عن معنی واحد بترکیبات متعدّدة مختلفة السیاق و الجمیع فائق قدرة البشر بالغ حد الإعجاز بل المدار هو المعنی الحافظ لجمیع جهات الذهن و الخارج «۳» ... لا شبهة فی دلالة القرآن علی ثبوت الآیة المعجزة و تحققها بمعنی الأمر الخارق للعادة الدالّ علی تصرف ما وراء الطبیعة فی عالم الطبیعة و نشأة المادّة لا بمعنی الأمر المبطل لضرورة العقل (________________________________. ۱)

یونس- ۳۲. (۲) الأنعام- ۱۵۳. (۳) راجع المبحث فی المیزان المجلد الأول ص ۶۱. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۲۸ و ما تمحله بعض المنتسبین إلی العلم من تأویل الآیات الدالّة علی ذلک توفیقا بینها و بین ما یتراءی من ظواهر الأبحاث الطبیعیّة «العلمیّة» الیوم تکلّف مردود إلیه. و الذی یفیده القرآن الشریف فی معنی خارق العادة و إعطاء حقیقته نذکره فی فصول من الکلام. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۲۹

الفصل الأول تصدیق القرآن لقانون العلیّة العامّة

الفصل الأول تصدیق القرآن لقانون العلیّة العامّة إنّ القرآن یثبت للحوادث الطبیعیّة أسبابا و یصدق قانون العلیّة العامّة کما یثبته ضرورة العقل و تعتمد علیه الأبحاث العلمیّة و الأنظار الاستدلالیّة، فإنّ الإنسان مفطور علی أن یعتقد لکل حادث مادی علّة موجبة من غیر تردّد و ارتیاب. و کذلک العلوم الطبیعیّة و سائر الأبحاث العلمیّة تعلل الحوادث و الأمور المربوطة بما تجده من أمور أخری صالحة للتعلیل، و لا نعنی بالعلّة إلّا أن یکون هناک أمر واحد أو مجموع أمور إذا تحقّقت فی الطبیعة مثلا تحقّق عندها أمر آخر نسمیه المعلول بحکم التجارب کدلالة التجربة علی أنّه کلّما تحقّق احتراق لزم أن یتحقّق هناک قبله علّة موجبة له من نار أو حرکة أو اصطکاک أو نحو ذلک، و من هنا کانت الکلیّة و عدم التخلّف من أحکام العلیّة و المعلولیّة و لوازمهما. و تصدیق هذا المعنی ظاهر من القرآن فیما جری علیه و تکلّم فیه من موت و حیاة و رزق و حوادث أخری علویة سماویّة أو سفلیّة أرضیّة علی أظهر وجه، و إن کان یسندها جمیعا بالآخرة إلی اللّه سبحانه لفرض التوحید. فالقرآن یحکم بصحة قانون العلیّة العامّة بمعنی أنّ سببا من الأسباب إذا تحقّق مع ما یلزمه و یکتنف به من شرائط التأثیر من غیر مانع لزمه وجود مسببه مترتبا علیه بإذن اللّه سبحانه و إذا وجد المسبّب کشف ذلک عن تحقق سببه لا محالة ... الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۳۰

الفصل الثانی إثبات القرآن ما یخرق العادة

الفصل الثانی إثبات القرآن ما یخرق العادة ثمّ إنّ القرآن یقتص و یخبر عن جملة من الحوادث و الوقائع لا یساعد علیه جریان العادة

المشهودة فى عالم الطبيعة على نظام العلّة و المعلول الموجود، و هذه الحوادث الخارقة للعادة هى الآيات المعجزة التى ينسبها إلى عدّة من الأنبياء الكرام كمعجزات نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و داود و سليمان و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّها أمور خارقة للعادة المستمرة فى نظام الطبيعة. لكن يجب أن يعلم أنّ هذه الأمور و الحوادث و إن أنكرتها العادة و استبعدتها إلّا أنّها ليست أمورا مستحيلة بالذات بحيث يبطلها العقل الضرورى كما يبطل قولنا الإيجاب و السلب يجتمعان معا و يرتفعان معا من كل جهة و قولنا الشىء يمكن أن يسلب عن نفسه و قولنا: الواحد ليس نصف الاثنين و أمثال ذلك من الأمور الممتنعة بالذات، كيف و عقول جم غفير من المليين منذ أعصار قديمة تقبل ذلك و ترتضيه من غير إنكار ورد و لو كانت المعجزات ممتنعة بالذات لم يقبلها عقل عاقل و لم يستدلّ بها على شىء و لم ينسبها أحد إلى أحد. على أنّ أصل هذه الأمور أعنى المعجزات ليس ممّا تنكره عادة الطبيعة بل هى ممّا يتعاوره نظام المادّة كل حين بتبديل الحى إلى ميّت و الميّت إلى الحى و تحويل صورة إلى صورة و حادثة إلى حادثة و رخاء إلى بلاء و بلاء إلى رخاء، و إنّما الفرق بين صنع العادة و بين المعجزة الخارقة هو الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۱ أنّ الأسباب الماديّة المشهودة التى بين أيدينا إنّما تؤثر أثرها مع روابط مخصوصة و شرائط زمانيّة و مكانيّة خاصّة تقضى بالتدريج فى التأثير، مثلا العصا و إن أمكن أن تصير حيّة تسعى و الجسد البالى و إن أمكن أن يصير إنسانا حيّا لكن ذلك إنّما يتحقّق فى العادة بعلل خاصّة و شرائط زمانيّة و مكانيّة مخصوصة تنتقل بها المادّة من حال إلى حال و تكتسى صورة بعد صورة حتّى تستقر و تحل بها الصورة الأخيرة المفروضة على ما تصدّقه المشاهدة و التجربة لا مع أى شرط اتّفق أو من غير علّة أو بإرادة مريد كما هو الظاهر من حال المعجزات و الخوارق التى يقصها القرآن. و كما أنّ الحس و التجربة الساذجين لا يساعدان على تصديق هذه الخوارق للعادة كذلك النظر العلمى الطبيعى، لكونه معتمدا على السطح المشهود من نظام العلّة و المعلول الطبيعيين، أعنى به السطح الذى يستقرّ عليه التجارب العلمية اليوم و الفرضيّات المعلّلة للحوادث الماديّة. إلّا أن حدوث الحوادث الخارقة للعادة إجمالا ليس فى وسع العلم إنكاره و الستر عليه، فكم من أمر عجيب خارق للعادة يأتى به أرباب المجاهدة و أهل الارتياض كل يوم تمتلى به العيون و تنشره النشريات و يضبطه الصحف و المسفورات بحيث لا يبقى لذى لب فى وقوعها شك و لا فى تحقّقها ريب. و هذا هو الذى ألجأ الباحثين فى الآثار الروحيّة من علماء العصر أن يعللوه بجريان أمواج مجهولة الكتريسية مغناطيسيّة فافترضوا أن الارتياضات الشاقّة تعطى للإنسان سلطة على تصريف أمواج مرموزة قويّة تملكه أو تصاحبه إرادة و شعور و بذلك يقدر على ما يأتى به من حركات و تحريكات و تصرفات عجيبة فى المادّة خارقة للعادة بطريق القبض و البسط و نحو ذلك. و هذه الفرضية لو تمت و اطردت من غير انتقاض لأدّت إلى تحقّق فرضيّة جديدة وسيعة تعلل جميع الحوادث المتفرقة التى كانت تعلّلها جميعا أو تعلل بعضها الفرضيات القديمة على محور الحركة و القوّة و لساقت جميع الحوادث الماديّة إلى التعلل و الارتباط بعلّة واحدة طبيعية. فهذا قولهم و الحق معهم فى الجملة إذ لا معنى لمعلول طبيعى لا علّة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۲ طبيعية له مع فرض كون الرابطة طبيعيّة محفوظة، و بعبارة أخرى إنّا لا نعنى بالعلّة الطبيعيّة إلّا أن تجتمع عدّة موجودات طبيعية مع نسب و روابط خاصّة فيتكون منها عند ذلك موجود طبيعى جديد حادث متأخر عنها مربوط بها بحيث لو انتقض النظام السابق عليه لم يحدث و لم يتحقّق وجوده. و أمّا القرآن الكريم فإنّه و إن لم يشخّص هذه العلّة الطبيعيّة الأخيرة التى تعلّل جميع الحوادث الماديّة العاديّة و الخارقة للعادة (على ما نحسبه) بتشخيص اسمه و كيفيّة تأثيره لخروجه عن غرضه العام إلّا أنّه مع ذلك يثبت لكل حادث مادى سببا ماديا بإذن اللّه تعالى، و بعبارة أخرى يثبت لكل حادث مادى مستند فى وجوده إلى اللّه سبحانه (و الكل مستند) مجرى ماديا و طريقا طبيعيا به يجرى فيض الوجود منه تعالى إليه. قال تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً «۱»، فإن صدر الآية يحكم بالإطلاق من غير تقييد أنّ كل من اتقى اللّه و توكّل عليه و إن كانت الأسباب العادية المحسوبة عندنا أسبابا تقضى بخلافه و تحكم بعدمه فإنّ اللّه سبحانه حسبه فيه و هو كائن لا محالة، كما يدلّ عليه أيضا إطلاق قوله تعالى: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ «۲»، و قوله تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

«۳»، و قوله تعالی: أ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ «۴». ثمّ الجملـة التالیة و هی قوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ «۵» یعلّل إطلاق الصدر، و فی هذا المعنی قوله: وَ اللَّهُ غـالِبٌ عَلی أَمْرِهِ وَ لکِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ «۶»، و هذه جملة مطلقة غیر مقیّدة بشیء البتة، فللّه سبحانه سبیل إلی كـلّ حـادث تعلقـت بـه مشـیئته و إرادتـه و إن كـانت السـبل العادیـة و الطرق المألوفـة مقطوعـة منتفیـة هنـاك.

(۱) الطلاق- ۳. (۲) البقرة- ۱۸۶. (۳) المؤمن- ۶۰. (۴) الزمر- ۳۶. (۵) الطلاق- ۳. (۶) یوسف- ۲۱. الإعجاز و التحدی فی القرآن الكريم، ص: ۳۳ و هذا یحتمل وجهین: أحـدهما أن یتوسـل تعـالی إلیه من غیر سـبب مادی و علّـة طبیعیّـة بل بمجرّد الإرادة وحـدها، و ثانیهما أن یكون هناك سبب طبیعی مستور عن علمنا یحیط به اللّه سبحانه و یبلغ ما یریده من طریقه إلّا أن الجملة التالیة من الآیة المعللة لما قبلها أعنی قوله تعالی قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، تدلّ علی ثانی الوجهین فإنّها تدلّ علی أن كلّ شیء من المسببات أعم مما تقتضیه الأسباب العادیة أو لا تقتضیه فإنّ له قـدرا قـدره اللّه سـبحانه علیه، و ارتباطات مع غیره من الموجودات و اتصالات وجودیـة مع ما سواه، للّه سـبحانه أن یتوسّل منها إلیه و إن كانت الأسـباب العادیـة مقطوعـة عنه غیر مرتبطة به إلّا أنّ هذه الاتصالات و الارتباطات لیست مملوكة للأشـیاء أنفسـها حتّی تطیع فی حـال و تعصـی فی أخری بـل مجعولـة بجعله تعـالی مطیعـة منقـادة له. فالآیـة تـدلّ علی أنّه تعـالی جعـل بین الأشـیاء جمیعها ارتباطات و اتصالات له أن یبلغ إلی كلّ ما یریـد من أی وجه شاء و لیس هـذا نفیا للعلیّـة و السـببیّة بین الأشـیاء بل إثبات أنّها بید اللّه سبحـانه یحولهـا كیف شـاء و أراد، ففی الوجود علیّـة و ارتباط حقیقی بین كل موجود و ما تقـدّمه من الموجودات المنتظمـة غیر أنّها لیست علی ما نجده بین ظواهر الموجودات بحسب العادة (و لذلک نجد الفرضیات العلمیة الموجودة قاصرة عن تعلیل جمیع الحوادث الوجودیّـة) بل علی ما یعلمه اللّه تعالی و ینظمه. و هـذه الحقیقة هی التی تدلّ علیها آیات القدر كقوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم «۱»، و قوله تعالی: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ «۲»، و قوله تعالی: وَ خَلَقَ كُلَّ شَـيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً «۳»، و قوله تعالی: الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدی «۴»، و كذا قوله تعالی: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِی كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها «۵»، و قوله تعالی: ما أَصابَ مِنْ

(۱) الحجر- ۲۱. (۲) القمر- ۴۹. (۳) الفرقان- ۲. (۴) الأعلی- ۳. (۵) الحدید- ۲۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الكريم، ص: ۳۴ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «۱»، فإنّ الآیـة الأولی و كـذا بقیّة الآیات تدلّ علی أن الأشیاء تنزل من ساحة الإطلاق إلی مرحلة التعین و التشـخص بتقـدیر منه تعالی و تحدید یتقدّم علی الشـیء و یصاحبه و لا معنی لكون الشـیء محدودا مقدرا فی وجوده إلّا أن یتحدّد و یتعیّن بجمیع روابطه التی مع سائر الموجودات و الموجود المادی مرتبط بمجموعـة من الموجودات المادیّـة الأخری التی هی كالقالب الـذی یقلب به الشـیء و یعیّن وجوده و یحـدّده و یقـدّره فما من موجود مادی إلّا و هو متقـدّر مرتبط بجمیع الموجودات المادیّة التی تتقدّمه و تصاحبه فهو معلول لآخر مثله لا محالة. و یمكن أن یستدل أیضا علی ما مرّ بقوله تعالی: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ «۲»، و قوله تعالی: ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِيم «۳»، فإن الآیتین بانضمام ما مرّت الإشارة إلیه من أنّ الآیات القرآنیّة تصدّق قانون العلیّة العام، تنتج المطلوب. و ذلک أنّ الآیة الأولی تعمم الخلقة لكلّ شـیء فما من شیء إلّا و هو مخلوق للّه عزّ شأنه، و الآیة الثانیة تنطق بكون الخلقة و الإیجاد علی وتیرة واحدة و نسق منتظم من غیر اختلاف یؤدی إلی الهرج و الجزاف و القرآن كمـا عرفت أنه یصـدق قانون العلیّـة العام فی ما بین الموجودات المادیّـة، ینتـج أنّ نظام الموجود فی الموجودات المادیّـة سواء كانت علی جری العـادة أو خارقـة لهـا علی صـراط مستقیم غیر متخلف و وتیرة واحـدة فی استناد كـلّ حادث فیه إلی العلّـة المتقدّمـة علیه الموجبة له. و من هنا یسـتنتج أنّ الأسـباب العادیة التی ربما یقع التخلف بینها و بین مسـبباتها لیست بأسـباب حقیقیة بل هناک أسـباب حقیقیّـة مطردة غیر متخلفـة الأحكـام و الخـواص كمـا ربّمـا یؤیـده التجـارب العلمی فی جراثیم الحیـاة و فی خـوارق العـادة كمـا مرّ.

(۱) التغـابن- ۱۱. (۲) المـؤمن- ۶۲.

(۳) هود- ۵۶. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۳۵

الفصل الثالث القرآن فی إسناده إلی العلّة المادیّة یسند إلی اللّه

الفصل الثالث القرآن فی إسناده إلی العلّة المادیّة یسند إلی اللّه ثمّ إنّ القرآن کما یثبت بین الأشیاء العلیّة و المعلولیّة و یصدق سببیّة البعض للبعض کذلک یسند الأمر فی الکل إلی اللّه سبحانه فیستنتج منه أنّ الأسباب الوجودیّة غیر مستقلة فی التأثیر و المؤثر الحقیقی بتمام معنی الکلمة لیس إلّا اللّه عزّ سلطانه. قال تعالی: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ «۱»، و قال تعالی: لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ «۲»، و قال تعالی: لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ «۳»، و قال تعالی: قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «۴» إلی غیر ذلک من الآیات الکثیرة الدالّة علی أنّ کلّ شیء مملوک محض للّه لا یشارکه فیه أحد، و له أن یتصرّف فیها کیف شاء و أراد و لیس لأحد أن یتصرّف فی شیء منها إلّا من بعد أن یأذن اللّه لمن شاء و یملّکه التصرّف من غیر استقلال فی هذا التملیک أیضا، بل مجرّد إذن لا یستقل به المأذون له دون أن یعتمد علی إذن الآذن، قال تعالی: قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ «۵»، و قال تعالی:

(____ ۱) الأعراف- ۵۳. (۲) البقرة- ۲۸۴.

(۳) الحدید- ۵. (۴) النساء- ۷۷. (۵) آل عمران- ۲۶. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۳۶ الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی «۱» إلی غیر ذلک من الآیات، و قال تعالی أیضا: لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۲»، و قال تعالی: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِیعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ «۳». فالأسباب تملکت السببیّة بتملیکه تعالی، و هی غیر مستقلّة فی عین أنّها مالکة و هذا المعنی هو الذی یعبّر سبحانه عنه بالشفاعة و الإذن، فمن المعلوم أنّ الإذن إنّما یستقیم معناه إذا کان هناک مانع من تصرّف المأذون فیه، و المانع أیضا إنّما یتصوّر فیما کان هناک مقتض موجود یمنع المانع عن تأثیره و یحول بینه و بین تصرّفه. فقد بان أنّ فی کلّ السبب مبدئا مؤثرا مقتضیا للتأثیر به یؤثر فی مسبّبه و الأمر مع ذلک للّه سبحانه.

(____ ۱) طه- ۵۰. (۲) البقرة- ۲۵۵. (۳)

یونس- ۳. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۳۷

الفصل الرابع القرآن یثبت تأثیرا فی نفوس الأنبیاء فی الخوارق

الفصل الرابع القرآن یثبت تأثیرا فی نفوس الأنبیاء فی الخوارق ثمّ إنه تعالی قال: وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ «۱». فأفاد إناطة إتیان أیة آیة من أیّ رسول بإذن اللّه سبحانه فبیّن أن إتیان الآیات المعجزة من الأنبیاء و صدورها عنهم إنّما هو لمبدأ مؤثر موجود فی نفوسهم الشریفة متوقّف فی تأثیره علی الإذن کما مرّ فی الفصل السابق. و قال تعالی: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّیاطِینُ عَلی مُلْکِ سُلَیْمانَ وَ ما کَفَرَ سُلَیْمانُ وَ لکِنَّ الشَّیاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَی الْمَلَکَیْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما یُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّی یَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَکْفُرْ فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۲». و الآیة کما أنّها تصدق صحّة السحر فی الجملة کذلک تدلّ علی أنّ السحر أیضا کالمعجزة فی کونه عن مبدأ نفسانی فی الساحر لمکان الإذن. و بالجملة جمیع الأمور الخارقة للعادة سواء سمیت معجزة أو سحرا أو غیر ذلک ککرامات الأولیاء و سائر الخصال المکتسبة بالارتیاضات و المجاهدات جمیعها مستندة إلی مبادئ نفسانیة و مقتضیات إرادیّة علی ما (____ ۱) المؤمن-

۷۸. (۲) البقرة- ۱۰۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۳۸ یشیر إلیه کلامه سبحانه إلّا أن کلامه ینص علی أنّ المبدأ الموجود عند الأنبیاء و الرسل و المؤمنین هو الفائق الغالب علی کلّ سبب و فی کلّ حال، قال تعالی: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِینَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «۱»، و قال تعالی: کَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی «۲»، و قال تعالی: إِنَّا لَنَنْصُرُ

رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) «۳»، و الآيات مطلقة غير مقيّدة. و من هنا يمكن أن يستنتج أنّ هذا المبدأ الموجود المنصور أمر وراء الطبيعة و فوق المادّة. فإنّ الأمور الماديّة مقدّرة محدودة مغلوبة لما هو فوقها قدرا واحدا عند التزاحم و المغالبة و الأمور المجرّدة أيضا و إن كانت كذلك إلّا أنّها لا تزاحم بينها و لا تمانع إلّا أن تتعلّق بالمادّة بعض التعلّق. و هذا المبدأ النفسانى المجرّد المنصور بإرادة اللّه سبحانه إذا قابل مانعا ماديّا أفاض إمدادا على السبب بما لا يقاومه سبب مادى يمنعه فافهم.

(١) الصافات- ١٧١ - ١٧٣. (٢) المجادلة ٢١. (٣) المؤمن- ۵۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۹

الفصل الخامس القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر اللّه

الفصل الخامس القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر اللّه ثمّ إنّ الجملة الأخيرة من الآية السابقة فى الفصل أعنى قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، الآية، تدلّ على أنّ تأثير هذا المقتضى يتوقّف على أمر من اللّه تعالى يصاحب الإذن الذى كان يتوقّف عليه أيضا فتأثير هذا المقتضى يتوقّف على مصادفته الأمر أو اتحاده معه. و قد فسّر الأمر فى قوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۱»، بكلمة الإيجاد و قول: كن. و قال تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا. وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «۲»، و قال: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «۳»، دلّت الآيات على أنّ الأمر الذى للإنسان أن يريده و بيده زمام اختياره لا يتحقّق موجودا إلّا أن يشاء اللّه ذلك بأن يشاء أن يشاء الإنسان و يريد إرادة الإنسان فإنّ الآيات الشريفة فى مقام أن أفعال الإنسان الإرادية و إن كانت بيد الإنسان بإرادته لكن الإرادة و المشيئة ليست بيد الإنسان بل هى مستندة إلى مشيئة اللّه سبحانه، و ليست فى مقام بيان أنّ

(١) يس- ٨٢. (٢) الدهر- ٢٩، ٣٠.

(۳) التكوير- ۲۷، ۲۸، ۲۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۰ كلّ ما يريده الإنسان فقد أراده اللّه فإنّه خطأ فاحش و لازمه أن يتخلّف الفعل عن إرادة اللّه سبحانه عند تخلّفه عن إرادة الإنسان، تعالى اللّه عن ذلك. مع أنّه خلاف ظواهر الآيات الكثيرة الواردة فى هذا المورد كقوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها «۱»، و قوله تعالى: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً «۲»، إلى غير ذلك فإرادتنا و مشيئتنا إذا تحقّقت فينا فهى مرادة بإرادة اللّه و مشيئته لها و كذا أفعالنا مرادة له تعالى من طريق إرادتنا و مشيئتنا بالواسطة. و هما أعنى الإرادة و الفعل جميعا متوقفان على أمر اللّه سبحانه و كلمة كن. فالأمور جميعا سواء كانت عادية أو خارقة للعادة و سواء كان خارق العادة فى جانب الخير و السعادة كالمعجزة و الكرامة، أو فى جانب الشر كالسحر و الكهانة مستندة فى تحقّقها إلى أسباب طبيعيّة، و هى مع ذلك متوقّفة على إرادة اللّه، لا توجد إلّا بأمر اللّه سبحانه أى بأن يصادف السبب أو يتّحد مع أمر اللّه سبحانه. و جميع الأشياء و إن كانت من حيث استناد وجودها إلى الأمر الإلهى على حدّ سواء بحيث إذا تحقّق الإذن و الأمر تحقّقت عن أسبابها، و إذا لم يتحقّق الإذن و الأمر لم تتحقّق، أى لم تتم السببيّة إلّا أنّ قسما منها و هو المعجزة من الأنبياء أو ما سأله عبد ربّه بالدعاء لا يخلو عن إرادة موجبة منه تعالى و أمر عزيمة كما يدلّ عليه قوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۳»، الآية، و قوله تعالى: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ «۴»، الآية، و غير ذلك من الآيات المذكورة فى الفصل السابق.

(١) السجدة- ١٣. (٢) يونس- ٩٩.

(٣) المجادلة- ٢١. (۴) البقرة- ۱۸۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۱

الفصل السادس القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب

الفصل السادس القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب فقد تبيّن من الفصول السابقة من البحث أن المعجزة كسائر الأمور الخارقة

للعادة لا تفارق الأسباب العادية فى الاحتياج إلى سبب طبيعى و أنّ مع الجميع أسبابا باطنيّة و أنّ الفرق بينها أنّ الأمور العادية ملازمة لأسباب ظاهريّة تصاحبها الأسباب الحقيقيّة الطبيعيّة غالبا أو مع الأغلب، و مع تلك الأسباب الحقيقيّة إرادة اللّه و أمره، و الأمور الخارقة للعادة من الشرور كالسحر و الكهانة مستندة إلى أسباب طبيعيّة مفارقة للعادة مقارنة للسبب الحقيقى بالإذن و الإرادة كاستجابة الدعاء و نحو ذلك من غير تحد يبتنى عليه ظهور حق الدعوة و أنّ المعجزة مستندة إلى سبب طبيعى حقيقى بإذن اللّه و أمره إذا كان هناك تحد يبتنى عليه صحّة النبوّة و الرسالة و الدعوة إلى اللّه تعالى و أنّ القسمين الآخرين يفارقان سائر الأقسام فى أنّ سببهما لا يصير مغلوبا مقهورا قط بخلاف سائر المسببات. فإن قلت: فعلى هذا لو فرضنا الإحاطة و البلوغ إلى السبب الطبيعى الذى للمعجزة كانت المعجزة ميسورة ممكنة الإتيان لغير النبى أيضا و لم يبق فرق بين المعجزة و غيرها إلّا بحسب النسبة و الإضافة فقط فيكون حينئذ أمر ما معجزة بالنسبة إلى قوم غير معجزة بالنسبة إلى آخرين، و هم المطّلعون على سببها الطبيعى الحقيقى، و فى عصر دون عصر، و هو عصر العلم، فلو ظفر البحث العلمى على الأسباب الحقيقيّة الطبيعيّة القصوى لم يبق مورد للمعجزة و لم تكشف المعجزة عن الحق. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۲ و نتيجة هذا البحث أنّ المعجزة لا حجيّة فيها إلّا على الجاهل بالسبب فليست حجة فى نفسها. قلت كلّا فليست المعجزة معجزة من حيث أنّها مستندة إلى سبب طبيعى مجهول حتّى تنسلخ عن اسمها عند ارتفاع الجهل و تسقط عن الحجيّة، و لا أنّها معجزة من حيث استنادها إلى سبب مفارق للعادة، بل هى معجزة من حيث أنّها مستندة إلى أمر مفارق للعادة غير مغلوب السبب قاهرة العلّة البتة، و ذلك كما أنّ الأمر الحادث من جهة استجابة الدعاء كرامة من حيث استنادها إلى سبب غير مغلوب كشفاء المريض مع أنّه يمكن أن يحدث من غير جهته كجهة العلاج بالدواء غير أنّه حينئذ أمر عادى يمكن أن يصير سببه مغلوبا مقهورا بسبب آخر أقوى منه. *** الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۳

الفصل السابع القرآن يعد المعجزة برهانا على صحّة الرسالة لا دليلا عاميا

الفصل السابع القرآن يعد المعجزة برهانا على صحّة الرسالة لا دليلا عاميا و هاهنا سؤال و هو أنّه ما هى الرابطة بين المعجزة و بين حقيّة دعوى الرسالة مع أنّ العقل لا يرى تلازما بين صدق الرسول فى دعوته إلى اللّه سبحانه و بين صدور أمر خارق للعادة عن الرسول على أنّ الظاهر من القرآن الشريف، تقرير ذلك فيما يحكيه من قصص عدّة من الأنبياء كهود و صالح و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّهم على ما يقصه القرآن حينما بثوا دعوتهم سألوا عن آية تدلّ على حقيّة دعواهم فأجابوهم فيما سألوا و جاءوا بالآيات، و ربّما أعطوا المعجزة فى أوّل البعثة قبل أن يسألهم أممهم شيئا من ذلك كما قال تعالى فى موسى عليه السّلام و هارون: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي «۱»، و قال تعالى فى عيسى عليه السّلام: وَ رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «۲» و كذا إعطاء القرآن معجزة للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالجملة فالعقل الصريح لا يرى تلازما بين حقيّة ما أتى به الأنبياء و الرسل من

(______________________________ ۱) طه- ۴۲. (۲) آل عمران- ۴۹.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۴ معارف المبدأ و المعاد و بين صدور أمر يخرق العادة عنهم. مضافا إلى أنّ قيام البراهين الساطعة على هذه الأصول الحقّة يغنى العالم البصير بها عن النظر فى أمر الإعجاز و لذا قيل إنّ المعجزات لإقناع نفوس العامّة لقصور عقولهم عن إدراك الحقائق العقليّة و أمّا الخاصّة فإنّهم فى غنى عن ذلك. و الجواب عن هذا السؤال أنّ الأنبياء و الرسل عليهم السّلام لم يأتوا بالآيات المعجزة لإثبات شيء من معارف المبدأ و المعاد ممّا يناله العقل كالتوحيد و البعث و أمثالهما و إنّما اكتفوا فى ذلك بحجة العقل و المخاطبة من طريق النظر و الاستدلال كقوله تعالى: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۱»، فى الاحتجاج على التوحيد و قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ «۲»، فى الاحتجاج على البعث. و إنّما سئل الرسل المعجزة و أتوا بها لإثبات رسالتهم و تحقيق دعواها. و ذلك أنّهم ادعوا الرسالة من اللّه بالوحى و أنّه بتكليم إلهى أو نزول ملك و نحو ذلك و هنا شىء خارق للعادة فى نفسه من غير سنخ الإدراكات الظاهرة و الباطنة التى يعرفها عامّة النّاس و يجدونها من أنفسهم، بل إدراك مستور عن عامّة النفوس لو صح وجوده لكان تصرفا خاصّا مما وراء الطبيعة فى نفوس الأنبياء فقط، مع أنّ الأنبياء كغيرهم من أفراد الناس فى البشريّة و قواها، و لذلك صادفوا إنكارا شديدا من الناس و مقاومة عنيفة فى ردّه على أحد وجهين: فتارة حاول الناس إبطال دعواهم بالحجّة كقوله تعالى: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا «۳»، استدلوا فيها (______________________________ ۱) إبراهيم- ۱۰. (۲) ص- ۲۸. (۳) إبراهيم- ۱۰۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۵ على بطلان دعواهم الرسالة بأنّهم مثل سائر الناس و الناس لا يجدون شيئا ممّا يدعونه من أنفسهم مع وجود المماثلة، و لو كان لكان فى الجميع أو جاز للجميع و لهذا، و هنا أجاب الرسل عن حجتهم بما حكاه اللّه تعالى عنهم بقوله: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ «۱»، فردّوا عليهم بتسليم المماثلة و أنّ الرسالة من منن اللّه الخاصّة، و الاختصاص ببعض النعم الخاصّة لا ينافى المماثلة، فللناس اختصاصات، نعم لو شاء اللّه أن يمن على من يشاء منهم فعل ذلك من غير مانع فالنبوة مختصّة بالبعض و إن جاز على الكل. و نظير هذا الاحتجاج قولهم فى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما حكاه اللّه تعالى: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا «۲»، و قولهم كما حكاه اللّه: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «۳». و نظير هذا الاحتجاج أو قريب منه ما فى قوله تعالى: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها «۴»، و وجه الاستدلال أنّ دعوى الرسالة توجب أن لا يكون بشرا مثلنا لكونه ذا أحوال من الوحى و غيره ليس فينا فلم يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق لاكتساب المعيشة؟ بل يجب أن ينزل معه ملك يشاركه فى الإنذار أو يلقى إليه كنز فلا يحتاج إلى المشى فى الأسواق للكسب أو تكون له جنّة فيأكل منها لا ممّا نأكل منه من طعام، فردّ اللّه تعالى عليهم بقوله: انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى أن قال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً «۵»، ورد تعالى فى موضع آخر مطالبتهم مباشرة الملك للإنذار بقوله: وَ لَوْ (______________________________ ۱) إبراهيم- ۱۳. (۲) ص- ۸. (۳) الزخرف- ۳۱. (۴) الفرقان- ۸. (۵) الفرقان- ۲۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۶ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ «۱». و قريب من ذلك الاحتجاج أيضا ما فى قوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً «۲»، فأبطلوا بزعمهم دعوى الرسالة بالوحى بمطالبة أن يشهدوا نزول الملك أو رؤية الرب سبحانه لمكان المماثلة مع النبى، فردّ اللّه تعالى عليهم ذلك بقوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً «۳»، فذكر أنّهم و الحال حالهم لا يرون الملائكة إلّا مع حال الموت كما ذكره فى موضع آخر بقوله تعالى: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ «۴» و تشتمل هذه الآيات الأخيرة على زيادة فى وجه الاستدلال، و هو تسليم صدق النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دعواه إلّا أنّه مجنون و ما يحكيه و يخبر به أمر يسوّله له الجنون غير مطابق للواقع كما فى موضع آخر من قوله: وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ «۵». و بالجملة فأمثال هذه الآيات مسوقة لبيان إقامتهم الحجّة على إبطال دعوى النبوّة من طريق المماثلة. و تارة أخرى أقاموا أنفسهم مقام الإنكار و سؤال الحجّة و البيّنة على صدق الدعوة لاشتمالها على ما تنكره النفوس و لا تعرفه العقول (على طريقة المنع مع السند باصطلاح فن المناظرة) و هذه البيّنة هى المعجزة بيان ذلك أنّ دعوى النبوّة و الرسالة من كل نبى و رسول على ما يقصّه القرآن إنّما كانت بدعوى الوحى و التكليم الإلهى بلا واسطة أو بواسطة نزول الملك، و هذا أمر لا يساعد عليه الحسّ و لا تؤيده التجربة فيتوجّه

عليـه الإشـكال مـن جهـتين: إحـداهما مـن جهـة عـدم الـدليل عليـه، و الثانيـة مـن جهـة الـدليل على

(۱) الأنعام– ۹. (۲) الفرقان– ۲۱. (۳)

الفرقان– ۲۲. (۴) الحجر– ۸. (۵) القمر– ۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۷ عدمه، فإنّ الوحى و التكليم الإلهى و ما يتلوه من التشريع و التربية الدينية مما لا يشاهده البشر من أنفسهم و العادة الجارية فى الأسباب و المسببات تنكره فهو أمر خارق للعادة و قانون العليّة العامّة لا يجوّزه، فلو كان النبى صادقا فى دعواه النبوّة و الوحى كان لازمه أنّه متّصل بما وراء الطبيعة، مؤيد بقوّة إلهيّة تقدر على خرق العادة و أنّ اللّه سبحانه يريد بنبوّته و الوحى إليه خرق العادة فلو كان هذا حقّا و لا فرق بين خارق و خارق كان من الممكن أن يصدر من النبى خارق آخر للعادة من غير مانع و أن يخرق اللّه العادة بأمر آخر يصدّق النبوّة و الوحى من غير مانع عنه فإنّ حكم الأمثال واحد فلئن أراد اللّه هداية الناس بطريق خارق للعادة و هو طريق النبوّة و الوحى فليؤيّدها و ليصدّقها بخارق آخر و هو المعجزة. و هذا هو الذى بعث الأمم إلى سؤال المعجزة على صدق دعوى النبوة كلما جاءهم رسول من أنفسهم بعث بالفطرة و الغريزة و كان سؤال المعجزة لتأييد الرسالة و تصديقها لا للدلالة على صدق المعارف الحقة التى كان الأنبياء يدعون إليها ممّا يمكن أن يناله البرهان كالتوحيد و المعاد و نظير هذا ما لو جاء رجل بالرسالة إلى قوم من قبل سيدهم الحاكم عليهم و معه أوامر و نواه يدعيها للسيد فإنّ بيانه لهذه الأحكام و إقامته البرهان على أن هذه الأحكام مشتملة على مصلحة القوم و هم يعلمون أن سيدهم لا يريد إلّا صلاح شأنهم، إنّما يكفى فى كون الأحكام التى جاء بها حقة صالحة للعمل، و لا تكفى البراهين و الأدلّة المذكورة فى صدق رسالته و أن سيدهم أراد منهم بإرساله إليهم ما جاء به من الأحكام بل يطالبونه ببيّنة أو علامة تدلّ على صدقه فى دعواه ككتاب بخطه و خاتمه يقرءونه أو علامة يعرفونها، كما قال المشركون للنبى حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ «۱». فقد تبيّن بما ذكرناه أولا: التلازم بين صدق دعوى الرسالة و بين المعجزة و أنّها الدليل على صدق دعواها لا يتفاوت فى ذلك حال الخاصّة و العامّة فى دلالتها و إثباتها و ثانيا أن ما يجده الرسول و النبى من الوحى و يدركه منه من غير سنخ ما نجده بحواسنا و عقولنا النظرية الفكرية فالوحى

(۱) الإسراء– ۹۳. الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۴۸ غير الفكر الصائب، و هذا المعنى فى كتاب اللّه تعالى من الوضوح و السطوع بحيث لا يرتاب فيه من له أدنى فهم و أقل إنصاف. و قد انحرف فى ذلك جمع من الباحثين من أهل العصر فراموا بناء المعارف الإلهيّة و الحقائق الدينية على ما وضعته العلوم الطبيعية من أصالة المادّة المتحوّلة المتكاملة فقد رأوا أن الإدراكات الإنسانيّة خواص ماديّة مترشحة من الدماغ و أن الغايات الوجودية و جميع الكمالات الحقيقية استكمالات فردية أو اجتماعية مادية. فذكروا أن النبوّة نوع نبوغ فكرى و صفاء ذهنى يستحضر به الإنسان المسمى نبيا كمال قومه الاجتماعى و يريد به أن يخلصهم من ورطة الوحشية و البربرية إلى ساحة الحضارة و المدنية فيستحضر ما ورثه من العقائد و الآراء و يطبقها على مقتضيات عصره و محيط حياته فيقنن لهم أصولا اجتماعية و كليات عملية يستصلح بها أفعالهم الحيوية ثمّ يتمم ذلك بأحكام و أمور عبادية ليستحفظ بها خواصهم الروحية لافتقار الجامعة الصالحة و المدنية الفاصلة إلى ذلك و يتفرع على هذا الافتراض: أولا: أن النبى إنسان متفكر نابغ يدعو قومه إلى صلاح محيطهم الاجتماعى. ثانيا: أن الوحى هو انتقاش الأفكار الفاضلة فى ذهنه. ثالثا: أن الكتاب السماوى مجموع هذه الأفكار الفاضلة المنزهة عن التهوسات النفسانية و الأغراض النفسانية الشخصية. و رابعا: أن الملائكة التى أخبر بها النبى قوى طبيعية تدبّر أمور الطبيعة أو قوى نفسانية تفيض كمالات النفوس عليها، و أن روح القدس مرتبة من الروح الطبيعية المادية تترشح منها هذه الأفكار المقدسة، و أن الشيطان مرتبة من الروح تترشح منها الأفكار الردية و تدعو إلى الأعمال الخبيثة المفسدة للاجتماع، و على هذا الأسلوب فسروا الحقائق التى أخبر بها الأنبياء كاللوح و القلم و العرش و الكرسى و الكتاب و الحساب و الجنة و النار بما يلائم الأصول المذكورة. و خامسا: أن الأديان تابعة لمقتضيات أعصارها تتحوّل بتحولها. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۹ و سادسا: أن المعجزات المنقولة عن الأنبياء المنسوبة إليهم خرافات مجعولة أو حوادث محرّفة لنفع الدين و حفظ عقائد العامة عن التبدل بتحول الأعصار أو لحفظ مواقع أئمة

الـدين و رؤساء المذهب عن السـقوط و الاضـمحلال إلى غير ذلك مما أبدعه قوم و تبعهم آخرون. هذه جمل ما ذكروه و النبوة بهذا المعنى لأن تسـمى لعبهٔ سياسـيهٔ أولى بها من أن تسمى نبوّهٔ إلهيهٔ، و الكلام التفصيلى فى أطراف ما ذكروه خارج عن البحث المقصود فى هذا المقام. و الذى يمكن أن يقال فيه هاهنا أن الكتب السـماويهٔ و البيانات النبويهٔ المأثورهٔ على ما بأيدينا لا توافق هذا التفسير و لا تناسـبه أدنى مناسـبهٔ، و إنما دعاهم إلى هـذا النوع من التفسـير إخلادهم إلى الأرض و ركونهم إلى مباحث المادهٔ فاستلزموا إنكار ما وراء الطبيعـهٔ و تفسـير الحقائق المتعاليهٔ عن المادهٔ بما يسـلخها عن شأنها و يعيدها إلى المادهٔ الجامدهٔ. و ما ذكره هؤلاء هو فى الحقيقهٔ تطور جديـد فيما كان يـذكره آخرون فقد كانوا يفسـرون جميع الحقائق المأثورهٔ فى الدين بالمادهٔ غير أنهم كانوا يثبتون لها وجودات غائبهٔ عن الحسّ كالعرش و الكرسـى و اللوح و القلم و الملائكهٔ و نحوها من غير مساعدهٔ الحسّ و التجربهٔ على شيء من ذلك ثمّ لما اتسع نطـاق العلوم الطبيعيـهٔ و جرى البحث على أسـاس الحس و التجربـهٔ لزم البـاحثين على ذلـك الأسـلوب أن ينكروا لهـذه الحقـائق وجوداتها الماديـهٔ الخارجـهٔ عن الحسّ أو البعيدهٔ عنه و أن يفسـروها بما يعيدها إلى الوجود المادى المحسوس ليوافق الدين ما قطع به العلم و يستحفظ بـذلك عن السـقوط. فهاتـان الطائفتـان بين بـاغ و عـاد، أمـا القـدماء من المتكلمين فقـد فهمـوا من البيانـات الـدينيهٔ مقاصـدها حق الفهم من غير مجاز غير أنهم رأوا أن مصاديقها جميعا أمور ماديـهٔ محضـهٔ لكنها غائبـهٔ عن الحس غير محكومـهٔ بحكم المـادهٔ أصـلا و الواقع خلافه، و أمـا المتـأخرون من بـاحثى هـذا العصـر ففسـروا البيانـات الدينيـهٔ بما أخرجوها به عن مقاصـدها البيّنهٔ الواضـحهٔ، و طبقوها على حقائق ماديـهٔ ينالها الحس و تصـدقها التجربـهٔ مع أنها ليست بمقصودهٔ و لا البيانات اللفظيهٔ تنطبق على شـيء منها. و البحث الصـحيح يوجب أن تفسـر هـذه البيانات اللفظيـهٔ على ما يعطيها اللفظ فى العرف و اللغـهٔ الإعجاز و التحـدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۰ ثمّ يعتمـد فى أمر المصداق على ما يفسـر به بعض الكلام بعضا ثمّ ينظر هل الأنظار العلمية تنافيها أو تبطلها؟ فلو ثبت فيهـا فى خلالـ ذلـك شـيء خـارج عن المادهٔ و حكمها فإنما الطريق إليه إثباتا أو نفيا طور آخر من البحث غير البحث الطبيعى الـذى تتكفله العلوم الطبيعيهٔ، فما للعلم الباحث عن الطبيعهٔ و للأمر الخارج عنها؟ فإن العلم الباحـث عن المادهٔ و خواصـها ليس من وظيفته أن يتعرض لغير المـادهٔ و خواصـها لاـ إثباتـا و لا نفيا. و لو فعل شـيئا منه باحث من بحّاثه كان ذلك منه شـططا من القول، نظير ما لو أراد البـاحث فى علـم اللغـهٔ أن يسـتظهر مـن علمـه حكـم الفلـك نفيـا أو إثباتـا ... «۱».

(۱) انظر جميع مـا تقـدم فى المجلد الأول من تفسير الميزان ص ۷۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۱

نزول القرآن

۱- النزول حقيقته و تعريفه:

۱- النزول حقيقته و تعريفه: قـال تعالى: شَـهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُـدى وَ الْفُرْقانِ «۱». النزول هو الورود على المحل من العلو، و الفرق بين الإنزال و التنزيل أن الإنزال دفعى و التنزيل تـدريجى، و القرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم باعتبـار كونه مقروّا كمـا قـال تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲» و يطلق على مجموع الكتاب و على أبعاضه. و الآيـهٔ تـدلّ على نزول القرآن فى شـهر رمضان، و قد قال تعالى: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «۳»، و هو ظاهر فى نزوله تـدريجيا فى مجموع مـدهٔ الـدعوهٔ و هى ثلاث و عشـرون سـنهٔ تقريبا و المتواتر من التاريـخ يدلّ على ذلك، و لذلك ربما استشكل عليه بالتنافى بين الآيتين.

۲- كيفيهٔ نزول القرآن:

۲- کیفیـة نزول القرآن: و ربمـا أجیـب عنـه: بـأنه نزل دفعـة علی سـماء الـدنیا فی شـهر رمضـان ثمّ

(____۱) البقرة- ۱۸۵. (۲) الزخرف- ۳.

(۳) الإسراء- ۱۰۶. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۲ نزل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نجوما و علی مکث فی مدة ثلاث و عشرین سنة- مجموع مدة الدعوة- و هذا جواب مأخوذ من الروایات التی سننقل بعضها فی البحث عن الروایات. و قد أورد علیه: بأن تعقیب قوله تعالی: أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ بقوله: هُدیً لِلنَّاسِ وَ بَیِّناتٍ مِنَ الْهُدی وَ الْفُرْقانِ «۱»، لا یساعد علی ذلک إذ لا معنی لبقائه علی وصف الهدایة و الفرقان فی السماء مدة سنین. و أجیب: بأن کونه هادیا من شأنه أن یهدی من یحتاج إلی هدایته من الضلال، و فارقا إذا التبس حق بباطل لا ینافی بقاءه مدة علی حال الشأنیة من غیر فعلیة التأثیر حتی یحل أجله و یحین حینه، و لهذا نظائر و أمثال فی القوانین المدنیة المنتظمة التی کلما حان حین مادة من موادها أجریت و خرجت من القوة إلی الفعل. و الحقّ أن حکم القوانین و الدساتیر غیر حکم الخطابات التی لا یستقیم أن تتقدم علی مقام التخاطب و لو زمانا یسیرا، و فی القرآن آیات کثیرة من هذا القبیل کقوله تعالی: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجادِلُکَ فِی زَوْجِها وَ تَشْتَکِی إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ یَسْمَعُ تَحاوُرَکُما «۲»، و قوله تعالی: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَیْها وَ تَرَکُوکَ قائِماً «۳»، و قوله تعالی: رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَیْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضی نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِیلًا «۴» علی أن فی القرآن ناسخا و منسوخا، و لا معنی لاجتماعهما فی زمان بحسب النزول. و ربما أجیب عن الإشکال: أن المراد من نزول القرآن فی شهر رمضان أن أول ما نزل منه نزل فیه، و یرد علیه: أن المشهور عندهم أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنما بعث بالقرآن، و قد بعث الیوم السابع العشرین من شهر رجب و بینه و بین رمضان أکثر من ثلاثین یوما و کیف تخلو البعثة فی هذه المدة من نزول القرآن، علی أن أول سورة اقرأ باسم ربک، یشهد علی أنها أول سورة

(____۱) البقرة- ۱۸۵. (۲) المجادلة- ۱.

(۳) الجمعة- ۱۱. (۴) الأحزاب- ۲۳. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۳ نزلت و أنها نزلت بمصاحبة البعثة، و کذا سورة المدّثر تشهد أنها نزلت فی أول الدعوة و کیف کان فمن المستبعد جدا أن تکون أول آیة نزلت فی شهر رمضان، علی أن قوله تعالی: أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ، غیر صریح الدلالة علی أن المراد بالقرآن أول نازل منه و لا قرینة تدل علیه فی الکلام فحمله علیه تفسیر من غیر دلیل، و نظیر هذه الآیة قوله تعالی: وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِینَ «۱»، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ «۲»، فإن ظاهر هذه الآیات لا یلائم کون المراد من إنزال القرآن أول إنزاله أو إنزال أول بعض من أبعاضه و لا قرینة فی الکلام تدل علی ذلک. و الذی یعطیه التدبّر فی آیات الکتاب أمر آخر فإن الآیات الناطقة بنزول القرآن فی شهر رمضان أو فی لیلة منه إنما عبرت عن ذلک بلفظ الإنزال الدال علی الدفعة دون التنزیل کقوله تعالی: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ «۳»، و قوله تعالی: حم. وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ «۴»، و قوله تعالی: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ و اعتبار الدفعة إما بلحاظ اعتبار المجموع فی الکتاب أو البعض النازل منه کقوله تعالی: کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ «۵». فإن المطر إنما ینزل تدریجیا لکن النظر هاهنا معطوف إلی أخذه مجموعا واحدا، و لذلک عبّر عنه بالإنزال دون التنزیل، و کقوله تعالی: کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ مُبارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ «۶»، و إما لکون الکتاب ذا حقیقة أخری وراء ما نفهمه بالفهم العادی الذی یقضی فیه بالتفرق و التفصیل و الانبساط و التدریج هو المصحّح لکونه واحدا غیر تدریجی و نازلا بالإنزال دون التنزیل. و هذا الاحتمال الثانی هو اللائح من الآیات الکریمة کقوله تعالی:

(____۱) الدخان- ۲ و ۳. (۲) القدر- ۱.

(۳) البقرة- ۱۸۵. (۴) الدخان- ۱ إلی ۳. (۵) یونس- ۲۴. (۶) ص- ۲۹. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۴ کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ «۱» فإن هذا الإحکام مقابل التفصیل، و التفصیل هو جعله فصلا فصلا و قطعة قطعة فالإحکام کونه بحیث لا یتفصّل فیه جزء من جزء و لا یتمیز بعض من بعض لرجوعه إلی معنی واحد لا أجزاء و لا فصول فیه، و الآیة ناطقة بأن هذا التفصیل المشاهد فی القرآن إنما طرأ علیه بعد کونه محکما غیر مفصّل. و أوضح منه قوله تعالی: وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِکِتابٍ

فَصَّلْناهُ عَلی عِلْمٍ هُدیً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ. هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِیلَهُ یَوْمَ یَأْتِی تَأْوِیلُهُ یَقُولُ الَّذِینَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ «۲»، و قوله تعالی: وَ ما کانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ یُفْتَری مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لکِنْ تَصْدِیقَ الَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ تَفْصِیلَ الْکِتابِ لا رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ- إلی أن قال-: بَلْ کَذَّبُوا بِما لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا یَأْتِهِمْ تَأْوِیلُهُ «۳» فإن الآیات الشریفهٔ و خاصهٔ ما فی سورهٔ یونس ظاهرهٔ الدلالهٔ علی أن التفصیل أمر طارئ علی الکتاب فنفس الکتاب شیء و التفصیل الذی یعرضه شیء آخر، و أنهم إنما کذّبوا بالتفصیل من الکتاب لکونهم ناسین لشیء یؤول إلیه هذا التفصیل و غافلین عنه، و سیظهر لهم یوم القیامهٔ و یضطرون إلی علمه فلا ینفعهم الندم و لات حین مناص و فیها إشعار بأن أصل الکتاب تأویل تفصیل الکتاب. و أوضح منه قوله تعالی: حم. وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۴» فإنه ظاهر فی أن هناک کتابا مبینا عرض علیه جعله مقروءا عربیا، و إنما ألبس لباس القراءهٔ و العربیهٔ لیعقله الناس و إلّا فإنه- و هو فی أم الکتاب- عند اللّه، علی لا یصعد إلیه العقول، حکیم لا یوجد فیه فصل و فصل. و فی الآیهٔ تعریف للکتاب المبین و أنه أصل القرآن العربی المبین، و فی هذا المساق أیضا قوله تعالی: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِیمٌ

(۱) هود- ۱. (۲) الأعراف- ۵۲ و ۵۳.

(۳) یونس- ۳۷ و ۳۹. (۴) الزخرف- ۱ إلی ۴. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۵ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ. فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ. لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ «۱» فإنه ظاهر فی أن للقرآن موقعا هو فی الکتاب المکنون لا یمسّه هناک أحد إلّا المطهرون من عباد اللّه و أن التنزیل بعده، و أما قبل التنزیل فله موقع فی کتاب مکنون عن الأغیار و هو الذی عبّر عنه فی آیات الزخرف، بأم الکتاب، و فی سورهٔ البروج، باللّوح المحفوظ، حیث قال تعالی: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ. فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۲»، و هذا اللوح إنما کان محفوظا لحفظه من ورود التغیر علیه، و من المعلوم أن القرآن المنزّل تدریجا لا یخلو عن ناسخ و منسوخ و عن التدریج الذی هو نحو من التبدّل، فالکتاب المبین الذی هو أصل القرآن و حکمه الخالی عن التفصیل أمر وراء هذا المنزّل، و إنما هذا بمنزلهٔ اللباس لذاک. ثم إن هذا المعنی أعنی: کون القرآن فی مرتبهٔ التنزیل بالنسبهٔ إلی الکتاب المبین- و نحن نسمّیه بحقیقهٔ الکتاب- بمنزلهٔ اللباس من المتلبّس و بمنزلهٔ المثال من الحقیقهٔ و بمنزلهٔ المثل من الغرض المقصود بالکلام هو المصحّح لأن یطلق القرآن أحیانا علی أصل الکتاب کما فی قوله تعالی: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ. فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، إلی غیر ذلک و هذا الذی ذکرنا هو الموجب لأن یحمل قوله: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍ مُبارَکَهٍ، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ علی إنزال حقیقهٔ الکتاب و الکتاب المبین إلی قلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دفعهٔ کما أنزل القرآن المفصّل علی قلبه تدریجا فی مدهٔ الدعوهٔ النبویهٔ. و هذا هو الذی یلوح من نحو قوله تعالی: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضی إِلَیْکَ وَحْیُهُ «۳»، و قوله تعالی: لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَیْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنا بَیانَهُ «۴»، فإن الآیات ظاهرهٔ فی أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان له علم بما سینزل علیه فنهی عن

(۱) الواقعهٔ- ۷۵ إلی ۸۰. (۲) البروج- ۲۱ و ۲۲. (۳) طه- ۱۱۴. (۴) القیامهٔ- ۱۶ إلی ۱۹. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۶ الاستعجال بالقراءهٔ قبل قضاء الوحی و سیأتی توضیحه فی المقام اللائق به- إن شاء اللّه تعالی-. و بالجملهٔ فإن المتدبّر فی الآیات القرآنیهٔ لا یجد مناصا عن الاعتراف بدلالتها علی کون هذا القرآن المنزّل علی النبی تدریجیا متکئا علی حقیقهٔ متعالیهٔ عن أن تدرکها أبصار العقول العامهٔ أو تناولها أیدی الأفکار المتلوثهٔ بألواث الهوسات و قذارات المادهٔ، و أن تلک الحقیقهٔ أنزلت علی النبی إنزالا فعلّمه اللّه بذلک حقیقهٔ ما عناه بکتابه، و سیجیء بعض من الکلام المتعلق بهذا المعنی فی البحث عن التأویل و التنزیل فی قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ «۱» فهذا ما یهدی إلیه التدبّر و تدل علیه الآیات. نعم أرباب الحدیث، و الغالب من المتکلمین و الحسیّون من باحثی هذا العصر لمّا أنکروا أصالهٔ ما وراء المادهٔ المحسوسهٔ اضطروا إلی حمل هذه الآیات و نظائرها کالدّالهٔ علی کون القرآن هدی و

رحمة و نورا و مواقع النجوم و کتابا مبینا، و فی لوح محفوظ، و نازلا- من عند اللّه، و فی صحف مطهّرة إلی غیر ذلک من الحقائق علی أقسام الاستعارة و المجاز فعاد بذلک القرآن شعرا منثورا.

۳- بعض الإشکالات و الردّ علیها:

۳- بعض الإشکالات و الردّ علیها: و لبعض الباحثین کلام فی معنی نزول القرآن فی شهر رمضان: قال ما محصّله: إنه لا ریب أن بعثة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان مقارنا لنزول أوّل ما نزل من القرآن و أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالتبلیغ و الإنذار، و لا ریب أن هذه الواقعة إنما وقعت باللیل لقوله تعالی: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِینَ «۲» و لا ریب أن اللیلة کانت من لیالی شهر رمضان لقوله تعالی: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ «۳» و جملة القرآن و إن لم تنزل فی تلک اللیلة لکن لما نزلت سورة الحمد فیها و هی تشتمل علی جمل معارف القرآن فکان کأن

(۱) آل عمران- ۷. (۲) الدخان- ۲.

(۳) البقرة- ۱۸۵. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۷ القرآن نزل فیها جمیعا فصح أن یقال: أنزلناه فی لیلة (علی أن القرآن یطلق علی البعض کما یطلق علی الکل بل یطلق القرآن علی سائر الکتب السماویة أیضا کالتوراة و الإنجیل و الزبور باصطلاح القرآن). قال: و ذلک أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالی: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ إلخ، نزل لیلة الخامس و العشرین من شهر رمضان، نزل و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قاصد دار خدیجة فی وسط الوادی فشاهد جبرائیل فأوحی إلیه قوله تعالی: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ إلخ، و لما تلقّی الوحی خطر بباله أن یسأله: کیف یذکر اسم ربه فتراءی له و علّمه بقوله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ إلی آخر سورة الحمد، ثم علّمه کیفیة الصلاة ثم غاب عن نظره فصحا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یجد مما کان یشاهد أثرا إلّا ما کان علیه من التعب الذی عرضه من ضغطة جبرائیل حین الوحی فأخذ فی طریقه و هو لا یعلم أنّه رسول من اللّه إلی الناس، مأمور بهدایتهم ثم لمّا دخل البیت نام لیلته من شدّة التعب فعاد إلیه ملک الوحی صبیحة تلک اللیلة و أوحی إلیه قوله تعالی: یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ «۱». قال: فهذا هو معنی نزول القرآن فی شهر رمضان و مصادفة بعثته للیلة القدر. و أما ما یوجد فی بعض کتب الشیعة من أن البعثة کانت یوم السابع و العشرین من شهر رجب فهذه الأخبار علی کونها لا توجد إلّا فی بعض کتب الشیعة التی لا یسبق تاریخ تألیفها أوائل القرن الرابع من الهجرة مخالفة للکتاب کما عرفت. قال: و هناک روایات أخری فی تأیید هذه الأخبار تدل علی أن معنی نزول القرآن فی شهر رمضان: أنه نزل فیه قبل بعثة النبی من اللوح المحفوظ إلی البیت المعمور و أملاه جبرائیل هناک علی الملائکة حتی ینزل بعد البعثة علی رسول اللّه، و هذه أوهام خرافیة دست فی الأخبار مردودة أولا بمخالفة الکتاب، و ثانیا: أن مراد القرآن باللوح المحفوظ هو عالم الطبیعة و بالبیت المعمور هو کرة الأرض لعمرانه بسکون الإنسان فیه، انتهی ملخصا.

(۱) المدثر- ۱ و ۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۸ و لست أدری أی جملة من جمل کلامه- علی فساده بتمام أجزائه- تقبل الإصلاح حتی تنطبق علی الحق و الحقیة بوجه؟ فقد اتسع الخرق علی الراتق. ففیه أولا: أن هذا التقوّل العجیب الذی تقوّله فی البعثة و نزول القرآن أول ما نزل و أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نزل علیه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ، و هو فی الطریق ثم نزلت علیه سورة الحمد ثمّ علّم الصلاة، ثمّ دخل البیت و نام تعبانا، ثم نزلت علیه سورة المدّثر صبیحة اللیلة فأمر بالتبلیغ، کل ذلک تقوّل لا دلیل علیه لا آیة محکمة و لا سنّة قائمة، و إنما هی قصة تخیّلیّة لا توافق الکتاب و لا النقل علی ما سیجیء. و ثانیا: أنه ذکر أن من المسلّم أن البعثة و نزول القرآن و الأمر بالتبلیغ مقارنة زمانا ثم فسّر ذلک بأن النبوة ابتدأت بنزول القرآن، و کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نبیا غیر رسول لیلة واحدة فقط ثم فی صبیحة اللیلة أعطی الرسالة بنزول سورة المدّثر، و لا یسعه، أن یستند فی ذلک إلی کتاب و لا سنّة، و لیس من المسلّم ذلک. أما السنّة فلأن لازم ما طعن به فی جوامع الحدیث مطلقا إذ لا شیء من کتب الحدیث مما ألّفته العامة أو الخاصة إلّا و تألیفه متأخر عن عصر

النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قرنین فصاعدا فهذا فی السنّهٔ، و التاریخ- علی خلوّه من هذه التفاصیل- حاله أسوأ و الدس الذی رمی به الحدیث متطرق إلیه أیضا. و أما الکتاب فقصور دلالته علی ما ذکره أوضح و أجلی بل دلالته علی خلاف ما ذکره و تکذیب ما تقوّله ظاهرهٔ فإن سورهٔ اقرأ باسم ربک- و هی أول سورهٔ نزلت علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ما ذکره أهل النقل، و یشهد به الآیات الخمس التی فی صدرها و لم یذکر أحد أنها نزلت قطعات و لا أقلّ من احتمال نزولها دفعهٔ- مشتملهٔ علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یصلی بمرأی من القوم و أنه کان منهم من ینهاه عن الصلاهٔ و یذکر أمره فی نادی القوم (و لا ندری کیف کانت هذه الصلاهٔ التی کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتقرّب بها إلی ربّه فی بادئ أمره إلّا ما تشتمل علیه هذه السورهٔ من أمر السجدهٔ) قال تعالی فیها: أ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی عَبْداً إِذا صَلَّی. أ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی أ رَأَیْتَ إِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلَّی. أ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری کَلَّا لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِیَهِٔ. ناصِیَهٍٔ کاذِبَهٍٔ الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۵۹ خاطِئَهٍٔ. فَلْیَدْعُ نادِیَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِیَهَٔ «۱» فالآیات کما تری ظاهرهٔ فی أنه کان هناک من ینهی مصلیا عن الصلاهٔ، و یذکر أمره فی النادی، و لا ینتهی عن فعاله، و قد کان هذا المصلی هو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدلیل قوله تعالی بعد ذلک: کَلَّا لا تُطِعْهُ «۲». فقد دلّت السورهٔ علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یصلی قبل نزول أول سورهٔ من القرآن، و قد کان علی الهدی و ربما أمر بالتقوی، و هذا هو النبوّهٔ و لم یسمّ أمره ذلک إنذارا، فکان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نبیا و کان یصلی و لما ینزل علیه قرآن و لا نزلت بعد علیه سورهٔ الحمد و لما یؤمر بالتبلیغ. و أما سورهٔ الحمد فإنها نزلت بعد ذلک بزمان، و لو کان نزولها عقیب نزول سورهٔ العلق بلا فصل عن خطور فی قلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما ذکره هذا الباحث لکان حق الکلام أن یقال: قل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ إلخ، أو یقال: بسم اللّه الرحمن الرحیم قل الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ إلخ و لکان من الواجب أن یختم الکلام فی قوله تعالی: مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ، لخروج بقیهٔ الآیات عن الغرض کما هو الألیق ببلاغهٔ القرآن الشریف. نعم وقع فی سورهٔ الحجر- و هی من السور المکیهٔ کما تدل علیه مضامین آیاتها، قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ «۳». و المراد بالسّبع المثانی سورهٔ الحمد و قد قوبل بها القرآن العظیم و فیه تمام التجلیل لشأنها و التعظیم لخطرها لکنها لم تعد قرآنا بل سبعا من آیات القرآن و جزءا منه بدلیل قوله تعالی: کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ «۴». و مع ذلک فاشتمال السورهٔ علی ذکر سورهٔ الحمد یدلّ علی سبق نزولها نزول سورهٔ الحجر، و السورهٔ مشتملهٔ أیضا علی قوله تعالی: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ. إِنَّا کَفَیْناکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ «۵» الآیات، و یدل ذلک علی أن رسول (______________________________ ۱) العلق- ۹ إلی ۱۸. (۲) العلق- ۱۹. (۳) الحجر- ۸۷. (۴) الزمر- ۲۳. (۵) الحجر- ۹۴ و ۹۵. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶۰ اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد کف عن الإنذار مدهٔ ثم أمر به ثانیا بقوله تعالی: فَاصْدَعْ. و أما سورهٔ المدثر و ما تشتمل علیه من قوله قُمْ فَأَنْذِرْ، فإن کانت السورهٔ نازلهٔ بتمامها دفعهٔ واحدهٔ کان حال هذه الآیهٔ قم فأنذر، حال قوله تعالی: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ «۱» الآیهٔ، لاشتمال هذه السورهٔ أیضا علی قوله تعالی: ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً إلی آخر الآیات، و هی قریبهٔ المضمون من قوله فی سورهٔ الحجر وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ إلخ، و إن کانت السورهٔ نازلهٔ نجوما فظاهر السیاق أن صدرها قد نزل فی بدء الرسالهٔ. و ثالثا: أن قوله: إن الروایات الدالهٔ علی نزول القرآن فی لیلهٔ القدر من اللوح المحفوظ إلی البیت المعمور جملهٔ واحدهٔ قبل البعثهٔ ثم نزول الآیات نجوما علی رسول اللّه أخبار مجعولهٔ خرافیهٔ لمخالفتها الکتاب و عدم استقامهٔ مضمونها، و إن المراد باللوح المحفوظ هو عالم الطبیعهٔ، و بالبیت المعمور کرهٔ الأرض خطأ و فریهٔ. أما أولا: فلأنه لا شیء من ظاهر الکتاب یخالف هذه الأخبار علی ما عرفت. و أما ثانیا: فلأن الأخبار خالیهٔ عن کون النزول الجملی قبل البعثهٔ بل الکلمهٔ مما أضافها هو إلی مضمونها من غیر تثبت. و أما ثالثا: فلأن قوله: إن اللوح المحفوظ هو عالم الطبیعهٔ تفسیر شنیع- و إنه أضحوکهٔ- و لیت شعری ما هو الوجه المصحح- علی قوله- لتسمیهٔ عالم الطبیعهٔ فی کلامه تعالی لوحا محفوظا؟ أ ذلک لکون هذا العالم محفوظا عن التغیر و التحول؟ فهو عالم الحرکات، سیال الذات، متغیر الصفات! أو لکونه محفوظا عن الفساد تکوینا أو تشریعا؟ فالواقع خلافه! أو لکونه محفوظا عن اطلاع غیر أهله علیه؟ کما یدل علیه قوله تعالی:

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۲»، فإدراك المدركين فيه على السواء!.

(۱) المدثر- ۱۱. (۲) الواقعة- ۷۷ إلى

۷۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۱ و بعد اللتيا و التى: لم يأت هذا الباحث فى توجيهه نزول القرآن فى شهر رمضان بوجه محصل يقبله لفظ الآية، فإن حاصل توجيهه: أن معنى: أنزل فيه القرآن: كأنما أنزل فيه القرآن، و معنى: إنا أنزلناه فى ليلة: كأنا أنزلناه فى ليلة، و هذا شىء لا يحتمله لغة العرف لهذا السياق!. و لو جاز لقائل أن يقول: نزل القرآن ليلة القدر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لنزول سورة الفاتحة المشتملة على جمل معارف القرآن جاز أن يقال: إن معنى نزول القرآن نزوله جملة واحدة أى نزول إجمال معارفه على قلب رسول اللّه من غير مانع يمنع كما مرّ بيانه سابقا. و فى كلامه جهات أخرى من الفساد تركنا البحث عنها لخروجها عن غرضنا فى المقام ... «۱».

(***۱) انظر المجلد الثانى من

الميزان ص ۱۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۲

عمدة البيان فى ترتيب القرآن

اشارة

عمدة البيان فى ترتيب القرآن فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول معنى الأجزاء و الأحزاب القرآنية

الفصل الأول معنى الأجزاء و الأحزاب القرآنية إن للقرآن الكريم أجزاء يعرف بها كالجزء و الحزب و العشر و غير ذلك و الذى ينتهى اعتباره إلى عناية من نفس الكتاب العزيز اثنان منها و هما السورة و الآية فقد كرر اللّه سبحانه ذكرهما فى كلامه كقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها «۱» و قوله: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ «۲». و غير ذلك. و قد كثر استعماله فى لسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الصحابة و الأئمة كثرة لا تدع ريبا فى أن لها حقيقة فى القرآن الكريم و هى مجموعة من الكلام الإلهى مبدوءة بالبسملة مسوقة لبيان غرض، و هو معرف للسورة مطرد غير منقوض إلّا ببراءة و قد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنها آيات من سورة الأنفال، و إلّا بما ورد عنهم عليهم السّلام أن الضحى و أ لم نشرح سورة واحدة و أن الفيل و الإيلاف سورة واحدة. و نظيره القول فى الآية فقد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الآية على قطعة من الكلام كقوله: وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً «۳»، و قوله:

(۱) النور- ۱. (۲) يونس- ۳۸. (۳)

الأنفال- ۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۳ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا «۱»، و قد روى عن أم سلمة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد روى عن أم سلمة أن النبى كان يقف على رءوس الآى و صح أن سورة الحمد سبع آيات، و روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن سورة الملك ثلاثون آية إلى غير ذلك مما يدل على وقوع العدد على الآيات فى كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الذى يعطيه التأمل فى انقسام الكلام العربى إلى قطع و فصول بالطبع و خاصة فيما كان من الكلام مسجعا ثم التدبر فيما ورد عن النبى و آله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أعداد الآيات أن الآية من القرآن هى قطعة من الكلام من حقها أن تعتمد عليها التلاوة بفصلها عما قبلها و عما بعدها. و يختلف ذلك باختلاف السياقات و خاصة فى السياقات المسجّعة فربما كانت كلمة واحدة كقوله: مُدْهامَّتانِ «۲» و ربما كانت كلمتين فصاعدا كلاما أو غير كلام كقوله: الرَّحْمنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيانَ «۳» و قوله: الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «۴»، و ربما طالت كآية الدين من سورة البقرة آية: ۲۸۲.

(____۱) حم السجدة- ۳. (۲) الرحمن- ۶۴. (۳) الرحمن- ۱ إلى ۴. (۴) الحاقة- ۱ إلى ۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۴

الفصل الثانى عدد السور القرآنية

الفصل الثانى عدد السور القرآنية أما عدد السور القرآنية فهى مائة و أربع عشرة سورة على ما جرى عليه الرسم فى المصحف الدائر بيننا و هو مطابق للمصحف العثمانى، و قد تقدم كلام أئمة أهل البيت عليهم السّلام فيه، و أنهم لا يعدون براءة سورة مستقلة و يعدون الضحى و أ لم نشرح سورة واحدة و يعدون الفيل و الإيلاف سورة واحدة. و أما عدد الآى فلم يرد فيه نص متواتر يعرف الآى و يميز كل آية من غيرها و لا شىء من الآحاد يعتمد عليه، و من أوضح الدليل على ذلك اختلاف أهل العدد فيما بينهم و هم المكيون و المدنيون و الشاميون و البصريون و الكوفيون. فقد قال بعضهم: إن مجموع القرآن ستة آلاف آية، و قال بعضهم: ستة آلاف و مائتان و أربع آيات، و قيل: و أربع عشرة، و قيل: و تسع عشرة و قيل: و خمس و عشرون، و قيل: و ست و ثلاثون. و قد روى المكيون عددهم عن عبد اللّه بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب، و للمدنيين عددان ينتهى أحدهما إلى أبى جعفر مرثد بن القعقاع و شيبة بن نصاح، و الآخر إلى إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى و روى أهل الشام عددهم عن أبى الدرداء، و ينتهى عدد أهل البصرة إلى عاصم بن العجاج الجحدرى، و يضاف عدد أهل الكوفة إلى حمزة و الكسائى و خلف قال حمزة أخبرنا بهذا العدد ابن أبى ليلى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۵ و بالجملة لما كانت الأعداد لا تنتهى إلى نص متواتر أو واحد يعبا به و يجوز الركون إليه و يتميز به كلّ آية عن أختها لا ملزم للأخذ بشىء منها فما كان منها بينا ظاهر الأمر فهو و إلّا فللباحث المتدبر أن يختار ما أدى إليه نظره. و الذى روى عن على عليه السّلام من عدد الكوفيين معارض بأن البسملة غير معدودة فى شىء من السور ما خلا فاتحة الكتاب من آياتها مع أن المروى عنه عليه السّلام و عن غيره من أئمة أهل البيت عليه السّلام أن البسملة آية من القرآن و هى جزء من كل سورة افتتحت بها و لازم ذلك زيادة العدد بعدد البسملات. و هذا هو الذى صرفنا عن إيراد تفاصيل ما ذكروه من العدد هاهنا، و ذكر ما اتفقوا على عدده من السور القرآنية و هى أربعون سورة و ما اختلفوا فى عدده أو فى رءوس آية من السور و هى أربع و سبعون سورة و كذا ما اتفقوا على كونه آية تامة أو على عدم كونه آية مثل الر أينما وقع من القرآن و ما اختلف فيه، و على من أراد الاطلاع على تفصيل ذلك أن يراجع مظانه. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۶

الفصل الثالث فى ترتيب السور نزولا

الفصل الثالث فى ترتيب السور نزولا نقل فى الإتقان عن ابن الضريس فى فضائل القرآن قال: حدثنا محمد ابن عبد اللّه بن أبى جعفر الرازى، أنبأنا عمرو بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد اللّه فيها ما شاء. و كان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبى لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم و الليل إذا يغشى، ثم و الفجر، ثم و الضحى، ثم أ لم نشرح، ثم و العصر، ثم و العاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم ألهاكم التكاثر، ثم أ رأيت الذى يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم أ لم تر كيف فعل ربك، ثم قل أعوذ برب الفلق، ثم قل أعوذ برب الناس، ثم قل هو اللّه أحد، ثم و النجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه فى ليلة القدر، ثم و الشمس و ضحاها، ثم و السماء ذات البروج، ثم التين، ثم لإيلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم ويل لكل همزة، ثم و المرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم بهذا البلد، ثم و السماء و الطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم قل أوحى، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بنى إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم

یوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حمعسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثیة، ثم الأحقاف، ثم الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶۷ الذاریات، ثم الغاشیة، ثم الکهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحا، ثم سورة إبراهیم، ثم الأنبیاء، ثم المؤمنین، ثم تنزیل السجدة، ثم الطور، ثم تبارک الملک، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم یتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنکبوت، ثم ویل للمطففین، فهذا ما أنزل اللّه بمکة. ثم أنزل اللّه بالمدینة سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحدید، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم یکن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر اللّه، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحریم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة. و قد سقطت من الروایة سورة فاتحة الکتاب و ربما قیل: إنما نزلت مرتین مرة بمکة و مرة بالمدینة. و نقل فیه عن البیهقی فی دلائل النبوة أنه روی بإسناده عن عکرمة و الحسین بن أبی الحسن قالا: أنزل اللّه من القرآن بمکة اقرأ باسم ربک و ساقا الحدیث نحو حدیث عطاء السابق عن ابن عباس إلّا أنه قد سقط منه الفاتحة و الأعراف و کهیعص مما نزل بمکة. و أیضا ذکر فیه حم الدخان قبل حم السجدة ثم إذا السماء انشقت قبل إذا السماء انفطرت ثم ویل للمطففین قبل البقرة مما نزل بالمدینة ثم آل عمران قبل الأنفال ثم المائدة قبل الممتحنة. ثم روی البیهقی بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل اللّه علی نبیه من القرآن اقرأ باسم ربک، الحدیث و هو مطابق لحدیث عکرمة فی الترتیب و قد ذکرت فیه السور التی سقطت من حدیث عکرمة فیما نزل بمکة. و فیه عن کتاب الناسخ و المنسوخ لابن حصار أن المدنی باتّفاق عشرون سورة و المختلف فیه اثنتا عشرة سورة و ما عدا ذلک مکی باتفاق، انتهی. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶۸ و الذی اتفقوا علیه من المدنیات البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و الأنفال و التوبة و النور و الأحزاب و سورة محمد و الفتح و الحجرات و الحدید و المجادلة و الحشر و الممتحنة و المنافقون و الجمعة و الطلاق و التحریم و النصر. و ما اختلفوا فی مکیته و مدنیته سورة الرعد و الرحمن و الجن و الصف و التغابن و المطففین و القدر و البینة و الزلزال و التوحید و المعوذتان. و للعلم بمکیة السور و مدنیتها ثمّ ترتیب نزولها أثر هام فی الأبحاث المتعلقة بالدعوة النبویة و سیرها الروحی و السیاسی و المدنی فی زمنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تحلیل سیرته الشریفة و الروایات- کما تری- لا تصلح أن تنهض حجة معتمدا علیها فی إثبات شیء من ذلک علی أن فیما بینها من التعارض ما یسقطها عن الاعتبار. فالطریق المتعین لهذا الغرض هو التدبر فی سیاق الآیات و الاستمداد بما یتحصل من القرائن و الأمارات الداخلیة و الخارجیة، و علی ذلک نجری فی هذا الکتاب و اللّه المستعان ... «۱ ____». ***

(۱) انظر هذا المبحث فی المجلد الثالث عشر من المیزان ص ۲۲۶. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶۹

المحکم و المتشابه و التأویل فی القرآن الکریم

اشارة

المحکم و المتشابه و التأویل فی القرآن الکریم اختلف القوم فی المقام، و قد شاع الخلاف و اشتد الانحراف بینهم، و ینسحب ذیل النزاع و المشاجرة إلی الصدر الأول من مفسری الصحابة و التابعین، و قلما یوجد فی ما نقل إلینا من کلامهم ما یقرب مما مرّ من البیان فضلا عن أن ینطبق علیه تمام الانطباق. و السبب العمدة فی ذلک الخلط بین البحث عن المحکم و المتشابه و بین البحث عن معنی التأویل، فأوجب ذلک اختلالا عجیبا فی عقد المسألة و کیفیة البحث و النتیجة المأخوذة منه، و نحن نورد تفصیل القول فی کل واحد من أطراف هذه الأبحاث و ما قیل فیها و ما هو المختار من الحق مع تمییز مورد البحث بما تیسر فی ضمن فصول:

الفصل الأول المحکم و المتشابه

اشارهٔ

الفصل الأول المحکم و المتشابه الإحکام و التشابه من الألفاظ المتعددهٔ المفاهیم فی اللغهٔ، و قد وصف بها الکتاب کما فی قوله تعالی: کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ «۱» و قوله تعالی: کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ «۲» و لم یتصف بهما إلّا جملهٔ الکتاب من جههٔ إتقانه فی نظمه و بیانه و من جههٔ تشابه نظمه و بیانه فی البلوغ إلی غایهٔ الإتقان و الإحکام.

(____ ۱) هود- ۱. (۲) الزمر- ۲۳. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۰ لکن قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ «۱» الآیهٔ، لما اشتمل علی تقسیم نفس آیات الکتاب إلی المحکمات و المتشابهات علمنا أن المراد بالإحکام و التشابه هاهنا غیر ما یتصف به تمام الکتاب

[الأقوال فی معنی المحکم و المتشابه

اشارهٔ

[الأقوال فی معنی المحکم و المتشابه و کان من الحری البحث عن معناهما و تشخیص مصداقهما من الآیات، و فیه أقوال ربما تجاوزت العشرهٔ:

أحدها: أن المحکمات هو قوله تعالی: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلَّا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً «۲» إلی آخر الآیات الثلاث و المتشابهات هی التی تشابهت علی الیهود

أحدها: أن المحکمات هو قوله تعالی: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلَّا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً «۲» إلی آخر الآیات الثلاث و المتشابهات هی التی تشابهت علی الیهود ، و هی الحروف المقطعهٔ النازلهٔ فی أوائل عدهٔ من السور القرآنیهٔ مثل الم و الر و حم، و ذلک أن الیهود أولوها علی حساب الجمل، فطلبوا أن یستخرجوا منها مدهٔ بقاء هذه الأمهٔ و عمرها فاشتبه علیهم الأمر نسب إلی ابن عباس من الصحابهٔ. و فیه أنه قول من غیر دلیل و لو سلم فلا دلیل علی انحصارهما فیهما، علی أن لازمه وجود قسم ثالث لیس بمحکم و لا متشابه مع أن ظاهر الآیهٔ یدفعه. لکن الحق أن النسبهٔ فی غیر محلها، و الذی نقل عن ابن عباس أنه قال: إن الآیات الثلاث من المحکمات لا أن المحکمات هی الآیات الثلاث، ففی الدر المنثور أخرج سعید بن منصور و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه ابن مردویه عن عبد اللّه بن قیس سمعت ابن عباس یقول فی قوله منه آیات محکمات، قال: الثلاث آیات من آخر سورهٔ الأنعام محکمات: قل تعالوا، و الآیتان بعدها. و یؤید ذلک ما رواه عنه أیضا فی قوله: آیاتٌ مُحْکَماتٌ، قال: من هاهنا: قل تعالوا إلی آخر ثلاث آیات، و من هاهنا: وَ قَضی رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِیَّاهُ إلی آخر ثلاث آیات، فالروایتان تشهدان أنه إنما ذکر هذه الآیات مثالا لسائر المحکمات لا أنه قصرها فیها.

و ثانیها: عکس الأول و هو أن المحکمات هی الحروف المقطعهٔ فی فواتح السور و المتشابهات غیرها

و ثانیها: عکس الأول و هو أن المحکمات هی الحروف المقطعهٔ فی فواتح السور و المتشابهات غیرها . نقل ذلک عن أبی فاختهٔ حیث ذکر فی (____ ۱) آل عمران- ۷. (۲) الأنعام- ۱۵۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۱ قوله تعالی: هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ أنهن فواتح السور منها یستخرج القرآن الم

ذلِکَ الْکِتابُ منها استخرجت البقرة و الم. اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ، منها استخرجت آل عمران. و عن سعید بن جبیر مثله فی معنی قوله: هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ، قال: أصل الکتاب لأنهن مکتوبات فی جمیع الکتب، انتهی. و یدل ذلک علی أنهما یذهبان فی معنی فواتح السور إلی أن المراد بها ألفاظ الحروف بمعنی أن الکتاب الذی نزل علیکم هو هذه الحروف المقطعة التی تتألف منها الکلمات و الجمل، کما هو أحد المذاهب فی معنی فواتح السور. و فیه: مضافا إلی أنه مبنی علی ما لا دلیل علیه أصلا أعنی تفسیر الحروف المقطعة فی فواتح السور بما عرفت أنه لا ینطبق علی نفس الآیة فإن جمیع القرآن غیر فواتح السور یصیر حینئذ من المتشابه، و قد ذمّ اللّه سبحانه اتباع المتشابه وعده من زیغ القلب مع أنه تعالی مدح اتباع القرآن بل عده من أوجب الواجبات کقوله تعالی: وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ «۱» و غیره من الآیات.

و ثالثها: أن المتشابه هو ما یسمی مجملا و المحکم هو المبین.

و ثالثها: أن المتشابه هو ما یسمی مجملا و المحکم هو المبین. و فیه: أن ما بیّن من أوصاف المحکم و المتشابه فی الآیة لا ینطبق علی المجمل و المبین. بیان ذلک: أن إجمال اللفظ هو کونه بحیث یختلط و یندمج بعض جهات معناه ببعض فلا تنفصل الجهة المرادة عن غیرها، و یوجب ذلک تحیر المخاطب أو السامع فی تشخیص المراد و قد جری دأب أهل اللسان فی طرف التفاهم أن لا یتبعوا ما هذا شأنه من الألفاظ بل یستریحون إلی لفظ آخر مبین یبین هذا المجمل فیصیر بذلک مبینا فیتبع فهذا حال المجمل مع مبینه، فلو کان المحکم و المتشابه هما المجمل و المبین بعینهما کان المتبع هو المتشابه إذا رد إلی المحکم دون نفس المحکم، و کان هذا الاتباع مما لا یجوزه قریحة التکلم و التفاهم فلم یقدم علی مثله

(۱) الأعراف- ۱۵۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۲

أهل اللسان سواء فی ذلک أهل الزیغ منهم و الراسخون فی العلم و لم یکن اتباع المتشابه أمرا یلحقه الذم و یوجب زیغ القلب.

رابعها: أن المتشابهات هی الآیات المنسوخة لأنها یؤمن بها و لا یعمل بها، و المحکمات هی الآیات الناسخة

رابعها: أن المتشابهات هی الآیات المنسوخة لأنها یؤمن بها و لا یعمل بها، و المحکمات هی الآیات الناسخة لأنها یؤمن بها و یعمل بها، و نسب إلی ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة، و لذلک کان ابن عباس یحسب أنه یعلم تأویل القرآن. و فیه: أنه علی تقدیر صحته لا دلیل فیه علی انحصار المتشابهات فی الآیات المنسوخة فإن الذی ذکره تعالی من خواص اتباع المتشابه من ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأویل جار فی کثیر من الآیات غیر المنسوخة کآیات الصفات و الأفعال، علی أن لازم هذا القول وجود الواسطة بین المحکم و المتشابه. و فیما نقل عن ابن عباس ما یدل علی أن مذهبه فی المحکم و المتشابه أعم مما ینطبق علی الناسخ و المنسوخ، و أنّه إنما ذکرهما من باب المثال ففی الدر المنثور أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق علی عن ابن عباس قال: المحکمات ناسخه و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه و ما یؤمن به، و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما یؤمن به و لا یعمل به، انتهی.

خامسها: أن المحکمات ما کان دلیله واضحا لائحا کدلائل الوحدانیة و القدرة و الحکمة، و المتشابهات ما یحتاج فی معرفته إلی تأمل

خامسها: أن المحکمات ما کان دلیله واضحا لائحا کدلائل الوحدانیة و القدرة و الحکمة، و المتشابهات ما یحتاج فی معرفته إلی تأمل و تدبر. و فیه: أنه إن کان المراد من کون الدلیل واضحا لائحا أو محتاجا إلی التأمل و التدبر کون مضمون الآیة ذا دلیل عقلی قریب

من البداهة أو بدیهی و عدم کونه کذلک کان لازمه کون آیات الأحکام و الفرائض و نحوها من المتشابه لفقدانها الدلیل العقلی اللائح الواضح، و حینئذ یکون اتباعها مذموما مع أنها واجبة الاتباع، و إن کان المراد به کونه ذا دلیل واضح لائح من نفس الکتاب و عدم کونه کذلک فجمیع الآیات من هذه الجهة علی وتیرة واحدة، و کیف لا؟ و هو کتاب متشابه مثانی، و نور، و مبین، و لازمه کون الجمیع محکما و ارتفاع المتشابه المقابل له من الکتاب و هو خلاف الفرض و خلاف النص. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۳

سادسها: أن المحکم کل ما أمکن تحصیل العلم به بدلیل جلی أو خفی، و المتشابه ما لا سبیل إلی العلم به

سادسها: أن المحکم کل ما أمکن تحصیل العلم به بدلیل جلی أو خفی، و المتشابه ما لا سبیل إلی العلم به کوقت قیام الساعة و نحوه. و فیه: أن الإحکام و التشابه صفتان لآیة الکتاب من حیث إنها آیة أی دالة علی معرفة من المعارف الإلهیة، و الذی تدل علیه آیة من آیات الکتاب لیس بعادم للسبیل، و لا ممتنع الفهم إما بنفسه أو بضمیمة غیره، و کیف یمکن أن یکون هناک أمر مراد من لفظ الآیة و لا یمکن نیله من جهة اللفظ؟ مع أنه وصف کتابه بأنه هدی و أنه نور، و أنه مبین، و أنه فی معرض فهم الکافرین فضلا عن المؤمنین حیث قال: تَنْزِیلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. کِتابٌ فُصِّلَتْ آیاتُهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ. بَشِیراً وَ نَذِیراً فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ «۱» و قال تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۲»، فما تعرضت له آیة من آیات الکتاب لیس بممتنع الفهم، و لا الوقوف علیه مستحیل، و ما لا سبیل إلی الوقوف علیه کوقت قیام الساعة و سائر ما فی الغیب المکنون لم یتعرض لبیانه آیة من الآیات بلفظها حتی تسمی متشابها. علی أن فی هذا القول خلطا بین معنی المتشابه و تأویل الآیة کما مرّ.

سابعها: أن المحکمات آیات الأحکام و المتشابهات غیرها

سابعها: أن المحکمات آیات الأحکام و المتشابهات غیرها مما یصرف بعضها بعضا، نسب هذا القول إلی مجاهد و غیره. و فیه: أن المراد بالصرف الذی ذکره إن کان مطلق ما یعین علی تشخیص المراد باللفظ حتی یشمل مثل التخصیص بالمخصص، و التقیید بالمقید و سائر القرائن المقامیة کانت آیات الأحکام أیضا کغیرها متشابهات، و إن کان خصوص ما لا إبهام فی دلالته علی المراد و لا کثرة فی محتملاته حتی یتعین المراد به بنفسه، و یتعین المراد بغیره بواسطته کان لازم کون ما سوی آیات الأحکام متشابهة أن لا یحصل العلم بشیء من معارف القرآن غیر الأحکام لأن المفروض عدم وجود آیة محکمة فیها ترجع إلیها المتشابهات منها، و یتبیّن بذلک معانیها (

---

۱) حم السجدة- ۲ إلی ۴. (۲) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۴

ثامنها: أن المحکم من الآیات ما لا یحتمل من التأویل إلّا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأویل أوجها

ثامنها: أن المحکم من الآیات ما لا یحتمل من التأویل إلّا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأویل أوجها کثیرة و نسب إلی الشافعی، و کأن المراد به أن المحکم ما لا ظهور له إلّا فی معنی واحد کالنص و الظاهر القوی فی ظهوره و المتشابه خلافه. و فیه: أنه لا یزید علی تبدیل اللفظ شیئا، فقد بدّل لفظ المحکم بما لیس له إلّا معنی واحد، و المتشابه بما یحتمل معانی کثیرة، علی أنه أخذ التأویل بمعنی التفسیر أی المعنی المراد باللفظ و قد عرفت أنه خطأ، و لو کان التأویل هو التفسیر بعینه لم یکن لاختصاص علمه باللّه، أو باللّه و بالراسخین فی العلم وجه فإن القرآن یفسر بعضه بعضا، و المؤمن و الکافر و الراسخین فی العلم و أهل الزیغ فی ذلک سواء.

تاسعها: أن المحکم ما أحکم و فصل فیه خبر الأنبیاء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم

تاسعها: أن المحکم ما أحکم و فصل فیه خبر الأنبیاء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتکریر فی سور متعددة، و لازم هذا القول اختصاص التقسیم بآیات القصص. و فیه: أنه لا دلیل علی هذا التخصیص أصلا، علی أن الذی ذکره تعالی من خواص المحکم و المتشابه و هو ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأویل فی اتباع المتشابه دون المحکم لا ینطبق علیه، فإن هذه الخاصة توجد فی غیر آیات القصص کما توجد فیها، و توجد فی القصة الواحدة کقصة جعل الخلافة فی الأرض کما توجد فی القصص المتکررة.

عاشرها: أن المتشابه ما یحتاج إلی بیان و المحکم خلافه

عاشرها: أن المتشابه ما یحتاج إلی بیان و المحکم خلافه ، و هذا الوجه منسوب إلی الإمام أحمد. و فیه: أن آیات الأحکام محتاجة إلی بیان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أنها من المحکمات قطعا لما تقدم بیانه مرارا، و کذا الآیات المنسوخة من المتشابه کما تقدم مع عدم احتیاجها إلی بیان لکونها نظائر لسائر آیات الأحکام.

الحادی عشر: أن المحکم ما یؤمن به و یعمل به و المتشابه ما یؤمن به و لا یعمل به

الحادی عشر: أن المحکم ما یؤمن به و یعمل به و المتشابه ما یؤمن به و لا یعمل به ، و نسب إلی ابن تیمیة، و لعل المراد به: أن الأخبار متشابهات و الإنشاءات محکمات کما استظهره بعضهم و إلّا لم یکن قولا برأسه لصحة انطباقه علی عدة من الأقوال المتقدمة. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۵ و فیه: أن لازمه کون غیر آیات الأحکام متشابهات، و لازمه أن لا یمکن حصول العلم بشیء من المعارف الإلهیة فی غیر الأحکام إذ لا یتحقق فیها عمل مع عدم وجود محکم فیها یرجع إلیه ما تشابه منها، و من جهة أخری: الآیات المنسوخة إنشاءات و لیست بمحکمات قطعا. و الظاهر أن مراده من الإیمان و العمل بالمحکم و الإیمان من غیر عمل بالمتشابه ما یدل علیه لفظ الآیة: فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا «۱»، إلّا أن الأمرین أعنی الإیمان و العمل معا فی المحکم و الإیمان فقط فی المتشابه لما کانا وظیفتین لکل من آمن بالکتاب کان علیه أن یشخص المحکم و المتشابه قبلا حتی یؤدی وظیفته، و علی هذا فلا یکفی معرفة المحکم و المتشابه بهما فی تشخیص مصداقهما و هو ظاهر.

الثانی عشر: أن المتشابهات هی آیات الصفات خاصة

الثانی عشر: أن المتشابهات هی آیات الصفات خاصة أعم من صفات اللّه سبحانه کالعلیم و القدیر و الحکیم و الخبیر، و صفات أنبیائه کقوله تعالی فی عیسی بن مریم علیه السّلام: وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ «۲» و ما یشبه ذلک، نسب إلی ابن تیمیة. و فیه: أنه مع تسلیم کون آیات الصفات من المتشابهات لا دلیل علی انحصارها فیها. و الذی یظهر من بعض کلامه المنقول علی طوله: أنه یأخذ المحکم و المتشابه بمعناهما اللغوی و هو ما أحکمت دلالته و ما تشابهت احتمالاته و المعنیان نسبیان فربما اشتبهت دلالة آیة علی قوم کالعامة و علمها آخرون بالبحث و هم العلماء، و هذا المعنی فی آیات الصفات أظهر فإنها بحیث تشتبه مراداتها لغالب الناس لکون أفهامهم قاصرة عن الارتقاء إلی ما وراء الحس، فیحسبون ما أثبته اللّه تعالی لنفسه من العلم و القدرة و السمع و البصر و الرضا و الغضب و الید و العین و غیر ذلک أمورا جسمانیة أو معانی لیست بالحق، و تقوم بذلک الفتن، و تظهر البدع، و تنشأ المذاهب فهذا معنی المحکم و المتشابه، و کلاهما مما یمکن أن یحصل به العلم، و الذی لا

(۱) آل عمران– ۷. (۲) النساء– ۱۷۱.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۶ يمكن نيله و العلم به هو تأويل المتشابهات بمعنى حقيقة المعانى التى تدل عليها أمثال آيات الصفات، فهب أنّا علمنا معنى قوله إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و نحو ذلك لكنا لا ندرى حقيقة علمه و قدرته و سائر صفاته و كيفية أفعاله الخاصة به، فهذا هو تأويل المتشابهات التى لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، انتهى ملخصا، و سيأتى ما يتعلق بكلامه من البحث عند ما نتكلم فى التأويل إن شاء اللّه.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه. و فيه: أنه قول من غير دليل، و الآيات القرآنية و إن انقسمت إلى ما للعقل إليه سبيل و ما ليس للعقل إليه سبيل، لكن ذلك لا يوجب كون المراد بالمحكم و المتشابه فى هذه الآية استيفاء هذا التقسيم، و شىء مما ذكر فيها من نعوت المحكم و المتشابه لا ينطبق عليه انطباقا صحيحا، على أنه منقوض بآيات الأحكام فإنها محكمة و لا سبيل للعقل إليها.

الرابع عشر: أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره

الرابع عشر: أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره ، و هذا قول شائع عند المتأخرين من أرباب البحث، و عليه يبتنى اصطلاحهم فى التأويل: أنه المعنى المخالف لظاهر الكلام، و كأنّه أيضا مراد من قال: إن المحكم ما تأويله تنزيله، و المتشابه ما لا يدرك إلّا بالتأويل. و فيه: أنه اصطلاح محض لا ينطبق عليه ما فى الآية من وصف المحكم و المتشابه فإنّ المتشابه إنما هو متشابه من حيث تشابه مراده و مدلوله، و ليس المراد بالتأويل المعنى المراد من المتشابه حتى يكون المتشابه متميزا عن المحكم بأن له تأويلا بل المراد بالتأويل فى الآية أمر يعم جميع الآيات القرآنية من محكمها و متشابهها كما مرّ بيانه. على أنه ليس فى القرآن آية أريد فيها ما يخالف ظاهرها، و ما يوهم ذلك من الآيات إنما أريد بها معان تعطيها لها آيات أخر محكمة، و القرآن يفسر بعضه بعضا، و من المعلوم أن المعنى الذى تعطيه القرائن– متصلة أو منفصلة– للفظ ليس بخارج عن ظهوره و بالخصوص فى كلام نص متكلمه على أن ديدنه أن يتكلم بما يتصل بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۷ و يرتفع كل اختلاف و تناف متراء بالتدبر فيه، قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱».

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه و كأن المراد بالإجماع و الاختلاف كون مدلول الآية بحيث تختلف فيه الأنظار أو لا تختلف. و فيه: أن ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابها و ينافيه التقسيم الذى فى الآية إذ ما من آية من آى الكتاب إلّا و فيه اختلاف ما: إما لفظا أو معنى أو فى كونها ذات ظهور أو غيرها، حتى ذهب بعضهم إلى أن القرآن كله متشابه مستدلا بقوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً «۲»، غفلة عن أن هذا الاستدلال منه يبتنى على كون ما استدل به آية محكمة و هو يناقض قوله، و ذهب آخرون إلى أن ظاهر الكتاب ليس بحجة أى أنه لا ظاهر له.

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى، ذكره الراغب. قال

فی مفردات القرآن: و المتشابه من القرآن مـا أشـکل تفسیره لمشـابهته بغیره، إمـا من حیث اللفظ، أو من حیث المعنی، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ینبئ ظاهره عن مراده، و حقیقـة ذلک: أن الآیات عنـد اعتبار بعضـها ببعض ثلاثـة أضـرب: محکم علی الإطلاق، متشابه علی الإطلاق، و محکم من وجه و متشابه من وجه. فالمتشابه فی الجملـة ثلاثـة أضـرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، و متشابه من جهة المعنی فقط، و متشابه من جهتهما. و المتشابه من جهـة اللفظ ضـربان: أحـدهما یرجع إلی الألفاظ المفردة، و ذلک إما من جهة غرابته نحو الأب و یزفون، و إما من جهـة مشارکـة فی اللفظ کالید و العین، و الثانی یرجع إلی جملة الکلام المرکب، و ذلک ثلاثة أضـرب: ضرب لاختصـار الکلام نحـو وَ إِنْ خِفْتُم أَلَّا تُقْسِطُوا فِی الْیَتامی فَانْکِحُوا ما

(۱) النسـاء- ۸۲. (۲) الزمر- ۲۳.

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۸ طابَ لَکُمْ مِنَ النِّساءِ «۱» و ضرب لبسط الکلام نحو لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ لأنه لو قیل لیس مثله شـیء کان أظهر للسامع، و ضرب لنظم الکلام نحو أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَیِّماً «۲» تقدیره الکتاب قیما و لم یجعل له عوجا، و قوله: وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ إلی قوله لَوْ تَزَیَّلُوا «۳». و المتشـابه من جهـة المعنی أوصاف اللّه تعالی و أوصاف یوم القیامة، فإن تلک الصـفات لا تتصور لنا، إذ کان لا یحصل فی نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم یکن من جنس ما لم نحسه. و المتشابه من جهة المعنی و اللفظ جمیعا خمسة أضـرب: الأول: من جهة الکمیة کالعموم و الخصوص نحو فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ، و الثانی: من جهة الکیفیـة کـالوجوب و النـدب نحو فَانْکِحُوا مـا طـابَ لَکُمْ، و الثـالث: من جهـة الزمان کالناسـخ و المنسوخ نحو اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ، و الرابع: من جهة المکان أو الأمور التی نزلت فیها نحو وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِها و قوله: إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَةٌ فِی الْکُفْرِ، فإن من لا یعرف عادتهم فی الجاهلیـة یتعـذر علیه معرفـة تفسیر هـذه الآیـة، و الخامس: من جهـة الشـروط التی بها یصح الفعل أو یفسـد کشـروط الصـلاة و النکاح. و هذه الجملة إذا تصورت علم: أن کل ما ذکره المفسرون فی تفسیر المتشابه لا یخرج عن هذه التفاسیر نحو قول من قال المتشابه الم، و قول قتادة: المحکم الناسخ و المتشابه المنسوخ، و قول الأصم: المحکم ما أجمع علی تأویله و المتشابه ما اختلف فیه. ثم جمیع المتشابه علی ثلاثة أضـرب: ضـرب لا سبیل للوقوف علیه کوقت الساعة و خروج دابة الأرض و کیفیة الدابة و نحو ذلـک. و ضـرب للإنسـان سبیـل إلی معرفته کالألفـاظ الغریبـة و الأحکـام المغلقـة و ضـرب متردد بین الأمرین، یجوز أن یختص بمعرفـة حقیقتـه بعض الراسـخین فی العلم

(۱) النسـاء- ۳. (۲) الکهـف- ۱ و ۲.

(۳) الفتح- ۲۵. الإعجاز و التحـدی فی القرآن الکریم، ص: ۷۹ و یخفی علی من دونهم، و هو الضـرب المشار إلیه بقوله علیه السّلام فی علی رضـی اللّه عنه: اللهم فقهه فی الـدین و علمه التأویـل، و قوله لابن عباس مثل ذلک، انتهی کلامه و هو أعم الأقوال فی معنی المتشـابه جمع فیهـا بین عـدة من الأقوال المتقدمـة. و فیه: أولاـ أن تعمیمه المتشـابه لموارد الشـبهات اللفظیـة کغرابـة اللفظ و إغلاق الترکیب و العموم و الخصوص و نحوهـا لاـ یساعـد علیه ظـاهر الآیـة فإن الآیـة جعلت المحکمات مرجعا یرجع إلیه المتشابهات، و من المعلوم أن غرابـة اللفظ و أمثالها لا تنحل عقـدتها من جهـة دلالـة المحکمات، بل لها مرجع آخر ترجع إلیه و تتضـح به. و أیضا: الآیة تصف المتشابهـات بأنهـا من شأنهـا أن تتبع لابتغاء الفتنـة، و من المعلوم: أن اتباع العام من غیر رجوع إلی مخصـصه، و المطلق من غیر رجوع إلی مقیـده و أخـذ اللفـظ الغریب مع الإـعراض عمـا یفسـره فی اللغـة مخالف لطریقـة أهل اللسان لا تجوزه قریحتهم فلا یکون بالطبع موجبا لإثارة الفتنـة لعدم مساعدة اللسان علیه. و ثانیا: أن تقسـیمه المتشابه بما یمکن فهمه لعامة الناس و ما لا یمکن فهمه لأحد و ما یمکن فهمه لبعض دون بعض ظاهر فی أنه یری اختصاص التأویل بالمتشابه و قـد عرفت خلافه. هذا هو المعروف من أقوالهم فی معنی المحکم و المتشـابه و تمییز مواردهمـا و قـد عرفت ما فیها، و عرفت أیضا أن الـذی یظهر من الآیـة علی ظهورها و سطوع نورها خلاف ذلک کله، و أن الـذی تعطیه الآیة فی معنی المتشابه أن تکون الآیة مع حفظ کونها آیة دالة علی معنی مریب مردد لا من جهة اللفظ بحیث تعالجه الطرق المألوفـة عنـد أهل اللسان کإرجاع العام و المطلق إلی المخصـص و المقیـد و نحو ذلک بل من جهـة کون

معناها غير ملائم لمعنى آية أخرى محكمة لا ريب فيه تبين حال المتشابهة. و من المعلوم أن معنى آية من الآيات لا يكون على هذا الوصف إلّا مع كون ما يتبع من المعنى مألوفا مأنوسا عند الأفهام العامية تسرع الأذهان الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۰ الساذجة إلى تصديقه أو يكون ما يرام من تأويل الآية أقرب إلى قبول هذه الأفهام الضعيفة الإدراك و التعقل. و أنت إذا تتبعت البدع و الأهواء و المذاهب الفاسدة التى انحرفت فيها الفرق الإسلامية عن الحق القويم بعد زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء كان فى المعارف أو فى الأحكام وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه، و التأويل فى الآيات بما لا يرتضيه اللّه سبحانه. ففرقة تتسمك من القرآن بآيات للتجسيم، و أخرى للجبر و أخرى للتفويض و أخرى لعثرة الأنبياء، و أخرى للتنزيه المحض بنفى الصفات، و أخرى للتشبيه الخالص و زيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه. و طائفة ذكرت: أن الأحكام الدينية إنما شرّعت لتكون طريقا إلى الوصول فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سلوكه متعينا لمن ركبه فإنما المطلوب هو الوصول بأى طريق اتفق و تيسر، و أخرى قالت: إن التكليف إنما هو لبلوغ الكمال، و لا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقق الوصول فلا تكليف لكامل. و قد كانت الأحكام و الفرائض و الحدود و سائر السياسات الإسلامية قائمة و مقامة فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يشذ منها شاذ ثم لم تزل بعد ارتحاله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنقص و تسقط حكما فحكما، يوما فيوما بيد الحكومات الإسلامية، و لم يبطل حكم أو حد إلّا و اعتذر المبطلون: أن الدين إنما شرع لصلاح الدنيا و إصلاح الناس، و ما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى ما يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين إصلاح الدنيا بإجرائها، و الدنيا اليوم لا- تقبل السياسة الدينية و لا- تهضمها بل تستدعى وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم و اجرائها، و إلى ما يقال: إن التلبس بالأعمال الدينية لتطهير القلوب و هدايتها إلى الفكرة و الإرادة الصالحتين و القلوب المتدربة بالتربية الاجتماعية، و النفوس الموقوفة على خدمة الخلق فى غنى عن التطهر بأمثال الوضوء و الغسل و الصلاة و الصوم. إذا تأملت فى هذه و أمثالها- و هى لا تحصى كثرة- و تدبرت فى قوله الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۱ تعالى؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ «۱» الآية، لم تشك فى صحة ما ذكرناه، و قضيت بأن هذه الفتن و المحن التى غادرت الإسلام و المسلمين لم تستقر قرارها إلّا من طريق اتباع المتشابه، و ابتغاء تأويل القرآن. و هذا- و اللّه أعلم- هو السبب فى تشديد القرآن الكريم فى هذا الباب و إصراره البالغ على النهى عن اتباع المتشابه و ابتغاء الفتنة و التأويل و الإلحاد فى آيات اللّه و القول فيها بغير علم و اتباع خطوات الشيطان فإن من دأب القرآن أنه يبالغ فى التشديد فى موارد سينثلم من جهتها ركن من أركان الدين فتنهدم به بنيته كالتشديد الواقع فى تولى الكفار، و مودة ذوى القربى، و قرار أزواج النبى عليه السّلام، و معاملة الربا، و اتحاد الكلمة فى الدين و غير ذلك و لا يغسل رين الزيغ من القلوب و لا يسد طريق ابتغاء الفتنة اللذين منشأهما الركون إلى الدنيا و الإخلاد إلى الأرض و اتباع الهوى إلّا ذكر يوم الحساب كما قال تعالى: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ «۲» و لذلك ترى الراسخين فى العلم المتأبين تأويل القرآن بما لا يرتضيه ربهم يشيرون إلى ذلك فى خاتمة مقالهم حيث يقولون: رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ.

(۱) آل عمران- ۷. (۲) ص- ۲۶.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۲

الفصل الثانى المحكمات أم الكتاب

الفصل الثانى المحكمات أم الكتاب ذكر جماعة: أن كون الآيات المحكمة أم الكتاب كونها أصلا فى الكتاب عليه تبتنى قواعد الدين و أركانها فيؤمن بها و يعمل بها، و ليس الدين إلّا مجموعا من الاعتقاد و العمل، و أما الآيات المتشابهة فهى لتزلزل مرادها و تشابه مدلولها لا يعمل بها بل إنما يؤمن بها إيمانا. و أنت بالتأمل فيما تقدم من الأقوال تعلم: أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمة، و

هی التی تری أن المتشابه إنما صار متشابها لاشتماله علی تأویل یتعذر الوصول إلیه و فهمه، أو أن المتشابه یمکن حصول العلم به و رفع تشابهه فی الجملة أو بالجملة بالرجوع إلی عقل أو لغة أو طریقة عقلائیة یستراح إلیها فی رفع الشبهات اللفظیة. و قال آخرون: إن معنی أمومة المحکمات رجوع المتشابهات إلیها، و کلامهم مختلف فی تفسیر هذا الرجوع، فظاهر بعضهم: أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات علی الإیمان و الاتباع العملی فی مواردها للمحکم کالآیة المنسوخة یؤمن بها و یرجع فی موردها إلی العمل بالناسخة، و هذا القول لا یغایر القول الأول کثیر مغایرة، و ظاهر بعض آخر أن معناها کون المحکمات مبینة للمتشابهات، رافعة لتشابهها. و الحق هو المعنی الثالث، فإن معنی الأمومة الذی یدل علیه قوله: هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ یتضمن عنایة زائدة و هو أخص من معنی الأصل الذی فسرت به الأم فی القول الأوّل، فإن فی هذه اللفظة أعنی لفظة الأم عنایة الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۸۳ بالرجوع الذی فیه انتشاء و اشتقاق و تبعض، فلا تخلو اللفظة عن الدلالة علی کون المتشابهات ذات مدالیل ترجع و تتفرع علی المحکمات، و لازمه کون المحکمات مبینة للمتشابهات. علی أن المتشابه إنما کان متشابها لتشابه مراده لا ـ لکونه ذا تأویل، فإن التأویل کما مرّ یوجد للمحکم کما یوجد للمتشابه، و القرآن یفسر بعضه بعضا فللمتشابه مفسر و لیس إلّا المحکم، مثال ذلک قوله تعالی: إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ «۱»، فإنها آیة متشابهة، و بإرجاعها إلی قوله تعالی: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ «۲»، و قوله تعالی: لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ «۳» یتبین: أن المراد بها نظرة و رؤیة من غیر سنخ رؤیة البصر الحسی، و قد قال تعالی: ما کَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأی أَ فَتُمارُونَهُ عَلی ما یَری «۴» إلی أن قال: لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری «۵»، فأثبت للقلب رؤیة تخصّه، و لیس هو الفکر فإن الفکر إنما یتعلق بالتصدیق و المرکب الذهنی و الرؤیة إنما تتعلق بالمفرد العینی، فیتبین بذلک أنه توجه من القلب لیست بالحسیّة المادیّة و لا بالعقلیة الذهنیة، و الأمر علی هذه الوتیرة فی سائر المتشابهات (______________________________ ۱) القیامة- ۲۳. (۲) الشوری- ۱۱. (۳) الأنعام- ۱۰۳. (۴) النجم- ۱۱ و ۱۲. (۵) النجم- ۱۸. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۸۴

الفصل الثالث حقیقة التأویل فی القرآن الکریم

الفصل الثالث حقیقة التأویل فی القرآن الکریم فسر قوم من المفسرین التأویل بالتفسیر و هو المراد من الکلام، و إذ کان المراد من بعض الآیات معلوما بالضرورة کان المراد بالتأویل علی هذا من قوله تعالی: وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ «۱»، هو المعنی المراد بالآیة المتشابهة فلا طریق إلی العلم بالآیات المتشابهة علی هذا القول لغیر اللّه سبحانه أو لغیره و غیر الراسخین فی العلم. و قالت طائفة أخری: إن المراد بالتأویل: هو المعنی المخالف لظاهر اللفظ و قد شاع هذا المعنی بحیث عاد اللفظ حقیقة ثانیة فیه بعد ما کان بحسب اللفظ لمعنی مطلق الإرجاع أو المرجع. و کیف کان فهذا المعنی هو الشائع عند المتأخرین کما أن المعنی الأول هو الذی کان شائعا بین قدماء المفسرین، سواء فیه من کان یقول: إن التأویل لا یعلمه إلّا اللّه، و من کان یقول: إن الراسخین فی العلم أیضا یعلمونه کما نقل عن ابن عباس، أنه کان یقول: أنا من الراسخین فی العلم و أنا أعلم تأویله. و ذهبت طائفة أخری: إلی أن التأویل معنی من معانی الآیة لا یعلمه إلّا اللّه تعالی، أو لا یعلمه إلّا اللّه و الراسخون فی العلم مع عدم کونه خلاف ظاهر اللفظ فیرجع الأمر إلی أن للآیة المتشابهة معانی متعددة بعضها تحت بعض، منها ما هو تحت اللفظ یناله جمیع الأفهام، و منها ما هو أبعد منه لا یناله إلّا اللّه سبحانه أو هو تعالی و الراسخون فی العلم (______________________________ ۱). آل عمران- ۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۸۵ و قد اختلفت أنظارهم فی کیفیة ارتباط هذه المعانی باللفظ فإن من المتیقن أنها من حیث کونها مرادة من اللفظ لیست فی عرض واحد و إلّا لزم استعمال اللفظ فی أکثر من معنی واحد و هو غیر جائز علی ما بین فی محله، فهی لا محالة معان مترتبة فی الطول: فقیل: إنها لوازم معنی اللفظ إلّا أنها لوازم مترتبة بحیث یکون للفظ معنی مطابقی و له لازم و للازمه لازم و هکذا، و قیل: إنها معان مترتبة بعضها علی بعض ترتب الباطن علی ظاهره، فإرادة المعنی المعهود المألوف إرادة لمعنی اللفظ و إرادة لباطنه بعین إرادته نفسه کما أنک إذا قلت: اسقنی فلا تطلب بذلک إلّا السقی و هو بعینه طلب

للإرواء، و طلب لرفع الحاجهٔ الوجودیهٔ، و طلب للکمال الوجودی و لیس هناک أربعهٔ أوامر و مطالب بل الطلب الواحد المتعلق بالسقی متعلق بعینه بهذه الأمور التی بعضها فی باطن بعض و السقی مرتبط بها و معتمد علیها. و هاهنا قول رابع: و هو أن التأویل لیس من قبیل المعانی المرادهٔ باللفظ بل هو الأمر العینی الذی یعتمد علیه الکلام، فإن کان الکلام حکما إنشائیا کالأمر و النهی فتأویله المصلحهٔ التی توجب إنشاء الحکم و جعله و تشریعه، فتأویل قوله: أقیموا الصلاهٔ مثلا هو الحالهٔ النورانیهٔ الخارجیهٔ التی تقوم بنفس المصلی فی الخارج فتنهاه عن الفحشاء و المنکر، و إن کان الکلام خبریا فإن کان إخبارا عن الحوادث الماضیهٔ کان تأویله نفس الحادثهٔ الواقعهٔ فی ظرف الماضی کالآیات المشتملهٔ علی أخبار الأنبیاء و الأمم الماضیهٔ فتأویلها نفس القضایا الواقعهٔ فی الماضی، و إن کان إخبارا عن الحوادث و الأمور الحالیهٔ و المستقبلهٔ فهو علی قسمین: فإما أن یکون المخبر به من الأمور التی تناله الحواس أو تدرکه العقول کان أیضا تأویله ما هو فی الخارج من القضیهٔ الواقعهٔ کقوله تعالی: وَ فِیکُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ «۱»، و قوله تعالی: غُلِبَتِ الرُّومُ. فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ. فِی بِضْعِ سِنِینَ «۲» و إن کان من الأمور المستقبلهٔ الغیبیهٔ التی لا تنالها حواسنا الدنیویهٔ و لا تدرک حقیقتها عقولنا کالأمور المربوطهٔ بیوم القیامهٔ و وقت

(۱) التوبهٔ- ۴۷. (۲) الروم- ۲ إلی ۴.

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۸۶ الساعهٔ و حشر الأموات و الجمع و السؤال و الحساب و تطایر الکتب، أو کان مما هو خارج من سنخ الزمان و إدراک العقول کحقیقهٔ صفاته و أفعاله تعالی فتأویلها أیضا نفس حقائقها الخارجیهٔ. و الفرق بین هذا القسم أعنی الآیات المبینهٔ لحال صفات اللّه تعالی و أفعاله و ما یلحق بها من أحوال یوم القیامهٔ و نحوها و بین الأقسام الأخر أن الأقسام الأخر یمکن حصول العلم بتأویلها بخلاف هذا القسم، فإنه لا یعلم حقیقهٔ تأویله إلّا اللّه تعالی، نعم یمکن أن یناله الراسخون فی العلم بتعلیم اللّه تعالی بعض النیل علی قدر ما تسعه عقولهم، و أما حقیقهٔ الأمر الذی هو حق التأویل فهو مما استأثر اللّه سبحانه بعلمه. فهذا هو الذی یتحصل من مذاهبهم فی معنی التأویل، و هی أربعهٔ. و هاهنا أقوال أخر ذکروها هی فی الحقیقهٔ من شعب القول الأول و إن تحاشی القائلون بها عن قبوله. فمن جملتها أن التفسیر أعم من التأویل، و أکثر استعماله فی الألفاظ و مفرداتها و أکثر استعمال التأویل فی المعانی و الجمل، و أکثر ما یستعمل التأویل فی الکتب الإلهیهٔ، و یستعمل التفسیر فیها و فی غیرها. و من جملتها: أن التفسیر بیان معنی اللفظ الذی لا یحتمل إلّا وجها واحدا و التأویل تشخیص أحد محتملات اللفظ بالدلیل استنباطا. و من جملتها: أن التفسیر بیان المعنی المقطوع من اللفظ و التأویل ترجیح أحد المحتملات من المعانی غیر المقطوع بها، و هو قریب من سابقه. و من جملتها أن التفسیر بیان دلیل المراد و التأویل بیان حقیقهٔ المراد. مثاله: قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ «۱» فتفسیره: أن المرصاد مفعال من قولهم: رصد یرصد إذا راقب، و تأویله التحذیر عن التهاون بأمر اللّه و الغفلهٔ عنه.

(۱) الفجر .. ۱۴. الإعجاز و التحدی

فی القرآن الکریم، ص: ۸۷ و من جملتها: أن التفسیر بیان المعنی الظاهر من اللفظ و التأویل بیان المعنی المشکل. و من جملتها: أن التفسیر یتعلق بالروایهٔ و التأویل یتعلق بالدرایهٔ. و من جملتها: أن التفسیر یتعلق بالاتباع و السماع و التأویل یتعلق بالاستنباط و النظر. فهذه سبعهٔ أقوال هی فی الحقیقهٔ من شعب القول الأول الذی نقلناه، یرد علیها ما یرد علیه و کیف کان فلا یصح الرکون إلی شیء من هذه الأقوال الأربعهٔ و ما ینشعب منها. أما إجمالا: فلأنک قد عرفت: أن المراد بتأویل الآیهٔ لیس مفهوما من المفاهیم تدل علیه الآیهٔ سواء کان مخالفا لظاهرها أو موافقا، بل هو من قبیل الأمور الخارجیهٔ، و لا کل أمر خارجی حتی یکون المصداق الخارجی للخبر تأویلا له، بل أمر خارجی مخصوص نسبته إلی الکلام نسبهٔ الممثل إلی المثل (بفتحتین) و الباطن إلی الظاهر. و أما تفصیلا فیرد علی القول الأول: أن أقل ما یلزمه أن یکون بعض الآیات القرآنیهٔ لا ینال تأویلها أی تفسیرها أی المراد من مدالیلها اللفظیهٔ عامهٔ الأفهام و لیس فی القرآن آیات کذلک بل القرآن ناطق بأنه إنما أنزل قرآنا لتناله الأفهام و لا مناص لصاحب هذا القول إلّا أن یختار أن الآیات المتشابهة إنما هی فواتح السور من الحروف المقطعهٔ حیث لا تنال معانیها عامهٔ الأفهام، و یرد علیه: أنه لا دلیل علیه، و مجرد کون

التأویل مشتملا على معنى الرجوع و كون التفسير أيضا غير خال عن معنى الرجوع لا- يوجب كون التأويل هو التفسير كما أن الأم مرجع لأولادها و ليست بتأويل لهم، و الرئيس مرجع للمرءوس و ليس بتأويل له. على أن ابتغاء الفتنة عد فى الآية خاصة مستقلة للتشابه و هو يوجد فى غير فواتح السور فإن أكثر الفتن المحدثة فى الإسلام إنما حدثت باتباع علل الأحكام و آيات الصفات و غيرها. و أما القول الثانى فيرد عليه: أن لازمه وجود آيات فى القرآن أريد بها معان يخالفها ظاهرها الذى يوجب الفتنة فى الدين بتنافيه مع المحكمات الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۸ و مرجعه إلى أن فى القرآن اختلافا بين الآيات لا يرتفع إلّا بصرف بعضها عن ظواهرها إلى معان لا تفهمها عامة الأفهام، و هذا يبطل الاحتجاج الذى فى قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، إذ لو كان ارتفاع اختلاف آية مع آية بأن يقال: إنه أريد بإحداهما أو بهما معا غير ما يدل عليه الظاهر بل معنى تأويلى باصطلاحهم لا يعلمه إلّا اللّه سبحانه مثلا لم تنجح حجة الآية، فإن انتفاء الاختلاف بالتأويل باصطلاحهم فى كل مجموع من الكلام و لو كان لغير اللّه أمر ممكن، و لا- دلالة فيه على كونه غير كلام البشر، إذ من الواضح أن كل كلام حتى القطعى الكذب و اللغو يمكن إرجاعه إلى الصدق و الحق بالتأويل و الصرف عن ظاهره، فلا يدل ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى عن مجموع كلام على كونه كلام من يتعالى عن اختلاف الأحوال، و تناقض الآراء، و السهو و النسيان و الخطأ و التكامل بمرور الزمان كما هو المعنى بالاحتجاج فى الآية، فالآية بلسان احتجاجها صريحة فى أن القرآن معرض لعامة الأفهام، و مسرح للبحث و التأمل و التدبر، و ليس فيه آية أريد بها معنى يخالف ظاهر الكلام العربى، و كلا أن فيه أحجية و تعمية. و أما القول الثالث فيرد عليه: أن اشتمال الآيات القرآنية على معان مترتبة بعضها فوق بعض و بعضها تحت بعض مما لا ينكره إلّا من حرم نعمة التدبر إلّا أنها جميعا- و خاصة لو قلنا إنها لوازم المعنى- مداليل لفظية مختلفة من حيث الانفهام و ذكاء السامع المتدبر و بلادته، و هذا لا يلائم قوله تعالى فى وصف التأويل: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، فإن المعارف العالية و المسائل الدقيقة لا- تختلف فيها الأذهان من حيث التقوى و طهارة النفس بل من حيث الحدة و عدمها، و إن كانت التقوى و طهارة النفس معنيين فى فهم المعارف الطاهرة الإلهية لكن ذلك ليس على نحو الدوران و العلية كما هو ظاهر قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ. و أما القول الرابع فيرد عليه: أنه و إن أصاب فى بعض كلامه لكنه أخطأ فى بعضه الآخر، فإنه و إن أصاب فى القول بأن التأويل لا يختص

(۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى

القرآن الكريم، ص: ۸۹ بالمتشابه بل يوجد لجميع القرآن، و أن التأويل ليس من سنخ المدلول اللفظى بل هو أمر خارجى يبتنى عليه الكلام لكنه أخطأ فى عد كل أمر خارجى مرتبط بمضمون الكلام حتى مصاديق الأخبار الحاكية عن الحوادث الماضية و المستقبلة تأويلا للكلام، و فى حصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و آيات القيامة. توضيحه: أن المراد حينئذ من التأويل فى قوله تعالى: وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ ... إلخ ... إما أن يكون تأويل القرآن برجوع ضميره إلى الكتاب فلا يستقيم قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ... إلخ ... فإن كثيرا من تأويل القرآن و هو تأويلات القصص بل الأحكام أيضا و آيات الأخلاق مما يمكن أن يعلمه غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم من الناس حتى الزائغون قلبا على قوله فإن الحوادث التى تدل عليها آيات القصص يتساوى فى إدراكها جميع الناس من غير أن يحرم عنه بعضهم، و كذا الحقائق الخلقية و المصالح التى يوجدها العمل بالأحكام من العبادات و المعاملات و سائر الأمور المشرعة. و إن كان المراد بالتأويل فيه تأويل المتشابه فقط استقام الحصر فى قوله تعالى: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، و أفاد أن غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم مثلا- لا- ينبغى لهم ابتغاء تأويل المتشابه، و هو يؤدى إلى الفتنة و إضلال الناس لكن لا وجه لحصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و القيامة فإن الفتنة و الضلال كما يوجد فى تأويلها يوجد فى تأويل غيرها من آيات الأحكام و القصص و غيرهما كأن يقول القائل (و قد قيل) إن المراد من تشريع الأحكام إحياء الاجتماع الإنسانىّ بإصلاح شأنه بما ينطبق على الصلاح فلو فرض أن صلاح المجتمع فى غير الحكم المشرع، أو أنه لا- ينطبق على صلاح الوقت وجب اتباعه و إلغاء الحكم الدينى المشرع. و كأن يقول القائل (و قد قيل) إن المراد من كرامات الأنبياء المنقولة فى القرآن أمور عادية، و إنما نقل بألفاظ

ظاهرها خلاف العادة لصلاح استمالة قلوب العامة لانجذاب نفوسهم و خضوع قلوبهم لما یتخیلونه خارقا للعادة قاهرا لقوانین الطبیعة، و یوجد فی المذاهب المنشعبة المحدثة فی الإسلام شیء کثیر من هذه الأقاویل، و جمیعها من التأویل فی القرآن ابتغاء للفتنة بلا الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۰ شک، فلا وجه لقصر المتشابه علی آیات الصفات و آیات القیامة. إذا عرفت ما مرّ علمت: أن الحق فی تفسیر التأویل أنه الحقیقة الواقعیة التی تستند إلیها البیانات القرآنیة من حکم أو موعظة أو حکمة، و أنه موجود لجمیع الآیات القرآنیة: محکمها و متشابهها، و أنه لیس من قبیل المفاهیم المدلول علیها بالألفاظ بل هی من الأمور العینیة المتعالیة من أن یحیط بها شبکات الألفاظ، و إنما قیدها اللّه سبحانه بقید الألفاظ لتقریبها من أذهاننا بعض التقریب فهی کالأمثال تضرب لیقرب بها المقاصد و توضح بحسب ما یناسب فهم السامع کما قال تعالی: وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۱» و فی القرآن تصریحات و تلویحات بهذا المعنی. علی أنک قد عرفت فیما مرّ من البیان: أن القرآن لم یستعمل لفظ التأویل فی الموارد التی استعملها- و هی ستة عشر موردا علی ما عدت- إلّا فی المعنی الذی ذکرناه ... (______________________________ ۱) الزخرف- ۲ إلی ۴. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۱

الفصل الرابع هل یعلم تأویل القرآن غیر اللّه سبحانه

الفصل الرابع هل یعلم تأویل القرآن غیر اللّه سبحانه هذه المسألة أیضا من موارد الخلاف الشدید بین المفسرین، و منشؤه الخلاف الواقع بینهم فی تفسیر قوله تعالی وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا الآیة، و أن الواو هل هو للعطف أو للاستئناف، فذهب بعض القدماء و الشافعیة و معظم المفسرین من الشیعة إلی أن الواو للعطف و أن الراسخین فی العلم یعلمون تأویل المتشابه من القرآن، و ذهب معظم القدماء و الحنفیة من أهل السنة إلی أنه للاستئناف و أنه لا یعلم تأویل المتشابه إلّا اللّه و هو ممّا استأثر اللّه سبحانه بعلمه، و قد استدلت الطائفة الأولی علی مذهبها بوجوه کثیرة، و ببعض الروایات، و الطائفة الثانیة بوجوه أخر و عدة من الروایات الواردة فی أن تأویل المتشابهات ممّا استأثر اللّه سبحانه بعلمه و تمادت کل طائفة فی مناقضة صاحبتها و المعارضة مع حججها. و الذی ینبغی أن یتنبه له الباحث فی المقام أن المسألة لم تخل عن الخلط و الاشتباه من أول ما دارت بینهم و وقعت موردا للبحث و التنقیر، فاختلط رجوع المتشابه إلی المحکم، و بعبارة أخری المعنی المراد من المتشابه بتأویل الآیة کما ینبئ به ما عنونّا به المسألة و قرنا علیه الخلاف و قول کل من الطرفین آنفا. و لذلک ترکنا التعرض لنقل صحیح الطرفین لعدم الجدوی فی إثباتها أو نفیها بعد ابتنائها علی الخلط، و أما الروایات فإنها مخالفة لظاهر الکتاب فإن الروایات المثبتة، أعنی الدالة علی أن الراسخین فی العلم یعلمون التأویل فإنها أخذت التأویل مرادفا للمعنی المراد من لفظ المتشابه و لا تأویل فی الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۲ القرآن بهذا المعنی، کما روی من طرق أهل السنّة: أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا لابن عباس فقال: اللهمّ فقهه فی الدین و علمه التأویل، و ما روی من قول ابن عباس: أنا من الراسخین فی العلم و أنا أعلم تأویله، و من قوله: إن المحکمات هی الآیات الناسخة و المتشابهات هی المنسوخة فإن لازم هذه الروایات علی ما فهموه أن یکون معنی الآیة المحکمة تأویلا للآیة المتشابهة و هو الذی أشرنا إلیه أن التأویل بهذا المعنی لیس موردا لنظر الآیة. و أما الروایات النافیة أعنی الدالة علی أن غیره لا یعلم تأویل المتشابهات مثل ما روی أن ابن عباس کان یقرأ: و ما یعلم تأویله إلّا اللّه و یقول الراسخون فی العلم آمنا به و کذلک کان یقرأ أبی بن کعب. و ما روی أن ابن مسعود کان یقرأ: و إن تأویله إلّا عند اللّه و الراسخون فی العلم یقولون آمنا به، فهذه لا تصلح لإثبات شیء: أما أولا؛ فلأن هذه القراءات لا حجیة فیها، و أما ثانیا: فلأن غایة دلالتها أن الآیة لا تدل علی علم الراسخین فی العلم بالتأویل و عدم دلالة الآیة علیه غیر دلالتها علی عدمه کما هو المدعی فمن الممکن أن یدل علیه دلیل آخر. و مثل ما فی الدر المنثور عن الطبرانی عن أبی مالک الأشعری أنه سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: لا أخاف علی أمتی إلّا ثلاث خصال: أن یکثر لهم المال

فیتحاسدوا فیقتلوا، و أن یفتح لهم الکتاب فیأخذه المؤمن یبتغی تأویله و ما یعلم تأویله إلّا اللّه و الراسخون فی العلم یقولون آمنا به کل من عند ربنا و ما یذکر إلّا أولوا الألباب، و أن یکثر علمهم فیضیعونه و لا یبالون به. و هذا الحدیث علی تقدیر دلالته علی النفی لا یدل إلّا علی نفیه عن مطلق المؤمن لا-عن خصوص الراسخین فی العلم، و لا-ینفع المستدل إلّا الثانی. و مثل الروایات الدالة علی وجوب اتباع المحکم و الإیمان بالمتشابه. و عدم دلالتها علی النفی ممّا لا یرتاب فیه. و مثل ما فی تفسیر الآلوسی عن ابن جریر عن ابن عباس مرفوعا: أنزل القرآن علی أربعة أحرف: حلال و حرام لا یعذر أحد بجهالته، و تفسیر تفسره العلماء و متشابه لا یعلمه إلّا اللّه، و من ادعی علمه سوی اللّه تعالی فهو کاذب و الحدیث مع کونه مرفوعا و معارضا بما نقل عنه من دعوة الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۳ الرسول له و ادعائه العلم به لنفسه مخالف لظاهر القرآن: أن التأویل غیر المعنی المراد بالمتشابه علی ما عرفت فیما مرّ. و الذی ینبغی أن یقال: أن القرآن یدل علی جواز العلم بالتأویل لغیره تعالی و أما هذه الآیة فلا دلالة لها علی ذلک. أما الجهة الثانیة فلما مرّ فی البیان السابق: أن الآیة بقرینة صدرها و ذیلها و ما تتلوها من الآیات إنما هی فی مقام بیان انقسام الکتاب إلی المحکم و المتشابه، و تفرق الناس فی الأخذ بها فهم بین مائل إلی اتباع المتشابه لزیغ فی قلبه و ثابت علی اتباع المحکم و الإیمان بالمتشابه لرسوخ فی علمه، فإنما القصد الأول فی ذکر الراسخین فی العلم بیان حالهم و طریقتهم فی الأخذ بالقرآن و مدحهم فیه قبال ما ذکر من حال الزائغین و طریقتهم و ذمهم، و الزاهد علی هذا القدر خارج عن القصد الأول و لا دلیل علی تشریکهم فی العلم بالتأویل مع ذلک إلّا وجوه غیر تامة تقدمت الإشارة إلیها، فیبقی الحصر المدلول علیه بقوله تعالی: وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ من غیر ناقض ینقضه من عطف و استثناء و غیر ذلک. فالذی تدل علیه الآیة هو انحصار العلم بالتأویل فیه تعالی و اختصاصه به. لکنه لا ینافی دلالة دلیل منفصل یدل علی علم غیره تعالی به بإذنه کما فی نظائره مثل العلم بالغیب، قال تعالی: قُلْ لا یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلَّا اللَّهُ «۱» و قال تعالی: إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلَّهِ «۲»، و قال تعالی: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «۳»، فدل جمیع ذلک علی الحصر ثم قال تعالی: عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ «۴» فأثبت ذلک لبعض من هو غیره و هو من ارتضی من رسول، و لذلک نظائر فی القرآن. و أما الجهة الأولی- و هی أن القرآن یدل علی جواز العلم بتأویله لغیره

(۱) النمل- ۶۵. (۲) یونس- ۲۰. (۳) الأنعام- ۵۹. (۴) الجن- ۲۶ و ۲۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۴ تعالی فی الجملة فبیانه: أن الآیات کما عرفت تدل علی أن تأویله الآیة أمر خارجی نسبته إلی مدلول الآیة نسبة الممثل إلی المثل، فهو و إن لم یکن مدلولا للآیة بما لها من الدلالة لکنه محکی لها محفوظ فیها نوعا من الحکایة و الحفظ، نظیر قولک: «فی الصیف ضیعت اللبن» لمن أراد أمرا قد فوت أسبابه من قبل، فإن المفهوم المدلول علیه بلفظ المثل و هو تضییع المرأة مع ذلک اللبن فی الصیف لا-ینطبق شیء منه علی المورد، و هو ممثل لحال المخاطب حافظ له یصوره فی الذهن بصورة مضمنة فی الصورة التی یعطیها الکلام بمدلوله. کذلک أمر التأویل فالحقیقة الخارجیة التی توجب تشریع حکم من الأحکام أو بیان معرفة من المعارف الإلهیة أو وقوع حادثة هی مضمون قصّة من القصص القرآنیة و إن لم تکن أمرا یدل علیه بالمطابقة نفس الأمر و النهی أو البیان أو الواقعة الکذائیة إلّا أن الحکم أو البیان أو الحادثة لما کان کل منها ینتشئ منها و یظهر بها فهو أثرها الحاکی لها بنحو من الحکایة و الإشارة کما أن قول السید لخادمه، اسقنی ینتشئ عن اقتضاء الطبیعة الإنسانیة لکمالها، فإن هذه الحقیقة الخارجیة هی التی تقتضی حفظ الوجود و البقاء، و هو یقتضی بدل ما یتحلل من البدن، و هو یقتضی الغذاء اللازم و هو یقتضی الری، و هو یقتضی الأمر بالسقی مثلا، فتأویل قوله: اسقنی هو ما علیه الطبیعة الخارجیة الإنسانیة من اقتضاء الکمال فی وجوده، و بقائه، و لو تبدلت هذه الحقیقة الخارجیة إلی شیء آخر یباین الأول مثلا لتبدل الحکم الذی هو الأمر بالسقی إلی حکم آخر و کذا الفعل الذی یعرف فیفعل أو ینکر فیجتنب فی واحد من المجتمعات الإنسانیة علی اختلافها الفاحش فی الآداب و الرسوم إنما یرتضع من ثدی الحسن و القبح الذی عندهم و هو یستند إلی مجموعة متحدة متفقة من علل زمانیة و مکانیة و سوابق عادات و رسوم مرتکزة فی ذهن الفاعل بالوراثة ممن سبقه، و تکرر المشاهدة ممن شاهده من أهل منطقته، فهذه العلة المؤتلفة

الأجزاء هی تأویل فعله أو ترکه من غیر أن تکون عین فعله أو ترکه لکنها محکیهٔ مضمنهٔ محفوظهٔ بالفعل أو الترک، و لو فرض تبدل المحیط الاجتماعی لتبدل ما أتی به من الفعل أو الترک. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۵ فالأمر الذی له التأویل سواء کان حکما أو قصهٔ أو حادثهٔ یتغیر بتغیر التأویل لا محالهٔ، و لذلک تری أنه تعالی فی قوله: فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَهِٔ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ الآیهٔ، لما ذکر اتباع أهل الزیغ ما لیس بمراد من المتشابه ابتغاء للفتنهٔ ذکر أنهم بذلک یبتغون تأویله الذی لیس بتأویل له و لیس إلّا لأن التأویل الذی یأخذون به لو کان هو التأویل الحقیقی لکان اتباعهم للمتشابه اتباعا حقا غیر مذموم و تبدل الأمر الذی یدل علیه المحکم و هو المراد من المتشابه إلی المعنی غیر المراد الذی فهموه من المتشابه و اتبعوه. فقد تبین: أن تأویل القرآن حقائق خارجیهٔ تستند إلیه آیات القرآن فی معارفها و شرائعها و سائر ما بینته بحیث لو فرض تغیر شیء من تلک الحقائق انقلب ما فی الآیات من المضامین. و إذا أجدت التدبر وجدت أن هذا ینطبق تمام الانطباق علی قوله تعالی: وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۱» فإنه یدل علی أن القرآن النازل کان عند اللّه أمرا أعلی و أحکم من أن تناله العقول أو یعرضه التقطع و التفصل لکنه تعالی عنایهٔ بعباده جعله کتابا مقروا و ألبسه لباس العربیهٔ لعلهم یعقلون ما لا سبیل لهم إلی عقله و معرفته ما دام فی أم الکتاب، و أم الکتاب هذا هو المدلول علیه بقوله: یَمْحُوا اللَّهُ ما یَشاءُ وَ یُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتابِ «۲»، و بقوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ. فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۳». و یدل علی إجمال مضمون الآیهٔ أیضا قوله تعالی: کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ «۴»، فالإحکام کونه عند اللّه بحیث لا ثلمهٔ فیه و لا فصل، و التفصیل هو جعله فصلا فصلا و آیهٔ آیهٔ و تنزیله علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و یدل علی هذه المرتبهٔ الثانیهٔ التی تستند إلی الأولی قوله تعالی (______________________________ :۱) الزخرف- ۲ إلی ۴. (۲) الرعد- ۳۹. (۳) البروج- ۲۱ و ۲۲. (۴) هود- ۱. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۶ وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النَّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا «۱»، فقد کان القرآن غیر مفروق الآیات ثم فرق و نزل تنزیلا- و أوحی نجوما. و لیس المراد بذلک أنه کان مجموع الآیات مرتب السور علی الحال الذی هو علیه الآن عندنا کتابا مؤلفا مجموعا بین الدفتین مثلا ثم فرق و أنزل علی النبی نجوما لیقرأه علی الناس علی مکث کما یفرقه المعلم المقرئ منا قطعات ثم یعلمه و یقرأه متعلمه کل یوم قطعهٔ علی حسب استعداد ذهنه. و ذلک أن بین إنزال القرآن نجوما علی النبی و بین إلقائه قطعهٔ قطعهٔ علی المتعلم فرقا بینا و هو دخالهٔ أسباب النزول فی نزول الآیهٔ علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا شیء من ذلک و لا ما یشبهه فی تعلم المتعلم، فالقطعات المختلفهٔ الملقاهٔ إلی المتعلم فی أزمنهٔ مختلفهٔ یمکن أن تجمع و ینضم بعضها إلی بعض فی زمان واحد و لا یمکن أن تجمع أمثال قوله تعالی: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ «۲» و قوله تعالی: قاتِلُوا الَّذِینَ یَلُونَکُمْ مِنَ الْکُفَّارِ «۳»، و قوله تعالی: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجادِلُکَ فِی زَوْجِها «۴» و قوله تعالی: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَهًٔ «۵»، و نحو ذلک فیلغی سبب النزول و زمانه ثمّ یفرض نزولها فی أول البعثهٔ أو فی آخر زمان حیاهٔ النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فالمراد بالقرآن فی قوله تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ غیر القرآن بمعنی الآیات المؤلفهٔ. و بالجملهٔ فالمحصل من الآیات الشریفهٔ أن وراء ما نقرأه و نعقله من القرآن أمرا هو من القرآن بمنزلهٔ الروح من الجسد و المتمثل من المثال و هو الذی یسمیه تعالی بالکتاب الحکیم- و هو الذی تعتمد و تتکی علیه معارف القرآن المنزل و مضامینه و لیس من سنخ الألفاظ المفرقهٔ المقطعهٔ و لا- المعانی المدلول علیها بها، و هذا بعینه هو التأویل المذکور فی الآیات المشتملهٔ علیه لانطباق أوصافه و نعوته علیه. و بذلک تظهر حقیقهٔ معنی التأویل، و یظهر (______________________________ ۱) الإسراء- ۱۰۶.

(۲) المائدهٔ- ۱۳. (۳) التوبهٔ- ۱۲۳. (۴) المجادلهٔ- ۱. (۵) التوبهٔ- ۱۰۳. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۷ سبب امتناع التأویل عن أن تمسّه الأفهام العادیهٔ و النفوس غیر المطهرهٔ. ثمّ إنه تعالی قال: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۱»، و لا شبهٔ فی ظهور الآیات فی أن المطهرین من عباد اللّه هم یمسون القرآن الکریم الذی فی الکتاب المکنون و المحفوظ من التغیر، و من التغیر تصرف الأذهان بالورود علیه و الصدور منه و لیس هذا المس إلّا نیل الفهم و العلم، و من المعلوم أیضا: أن الکتاب المکنون هذا هو أم الکتاب

المـدلول علیه بقوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ و هو المـذکور فی قوله: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ. و هؤلاء قوم نزلت الطهارهٔ فی قلوبهم، و لیس ینزلها إلّا اللّه سبحانه، فإنه تعالی لم یذکرها إلّا کذلک أی منسوبهٔ إلی نفسه کقوله تعالی: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «۲»، و قوله تعالی: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ «۳»، و ما فی القرآن شیء من الطهارهٔ المعنویـهٔ إلّا منسوبـهٔ إلی اللّه أو بإذنه و لیست الطهارهٔ إلّا زوال الرجس من القلب، و لیس القلب من الإنسان إلّا ما یـدرک به و یریـد به، فطهـارهٔ القلب طهـارهٔ نفس الإنسـان فی اعتقادها و إرادتها و زوال الرجس عن هاتین الجهتین، و یرجع إلی ثبات القلب فیمـا اعتقـده من المعـارف الحقـهٔ من غیر میلاـن إلی الشـک و نوسان بین الحق و الباطل، و ثباته علی لوازم ما علمه من الحق من غیر تمایل إلی اتباع الهوی و نقض میثاق العلم، و هذا هو الرسوخ فی العلم فإن اللّه سبحانه ما وصف الراسخین فی العلم إلّا بأنهم مهدیون ثابتون علی ما علموا غیر زائغهٔ قلوبهم إلی ابتغاء الفتنهٔ فقد ظهر أن هؤلاء المطهرین راسـخون فی العلم، هذا. و لکن ینبغی أن لا تشـتبه النتیجـهٔ التی ینتجهـا هـذا البیـان، فـإن المقـدار الثـابت بـذلک أن المطهرین یعلمون التأویـل، و لازم تطهیرهـم أن یکونوا راسـخین فی علـــــــومهم، لمــــــا أن تطهیر قلـــــــوبهم منســـــــوب إلی اللّـــــــه و هـــــــو تعـــــــالی ســـــــبب (ـــ ۱) الواقعـهٔ- ۷۹. (۲) الأـحزاب- ۳۳.

(۳) المائدهٔ- ۶. الإعجاز و التحـدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۸ غیر مغلوب، لا أن الراسـخین فی العلم یعلمونه بما أنهم راسـخون فی العلم أی إن الرسوخ فی العلم سـبب للعلم بالتأویـل فإن الآیـهٔ لا تثبت ذلک، بل ربما لاح من سـیاقها جهلهم بالتأویل حیث قال تعالی: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا الآیـهٔ، و قـد وصف اللّه تعالی رجالا من أهل الکتاب برسوخ العلم و مدحهم بذلک، و شـکرهم علی الإیمان و العمل الصالح فی قوله: لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ «۱» الآیهٔ، و لم یثبت مع ذلـک کونهم عالمین بتأویل الکتاب. و کـذلک إن الآیـهٔ أعنی قوله تعالی: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ لم تثبت للمطهرین إلّا مسّ الکتـاب فی الجملـهٔ، و أما أنهم یعلمون کل التأویل و لا یجهلون شـیئا منه و لا فی وقت فهی ساکتـهٔ عن ذلک، و لو ثبت لثبت بـدلیل منفصـل (ــ. ۱) النساء- ۱۶۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۹۹

الفصل الخامس ما هو السبب فی اشتمال الکتاب علی المتشابه؟

الفصـل الخـامس مـا هـو السبب فی اشـتمال الکتـاب علی المتشـابه؟ و من الاعتراضـات التی أوردت علی القرآن الکریم الاـعتراض باشتماله علی المتشابهات و هو أنکم تدعون أن تکالیف الخلق إلی یوم القیامهٔ فیه، و أنه قول فصل یمیز بین الحق و الباطل، ثم إنا نراه یتمسک به کل صاحب مذهب من المذاهب المختلفهٔ بین المسـلمین لإثبات مذهبه، و لیس ذلک إلی لوقوع التشابه فی آیاته، أ فلیس أنه لو جعله جلیا نقیـا عن هـذه المتشابهـات کان أقرب إلی الغرض المطلوب، و أقطع لمادهٔ الخلاف و الزیغ؟ و أجیب عنه بوجوه من الجواب بعضـها ظـاهر السـخافهٔ کـالجواب بأن وجود المتشابهات یوجب صـعوبهٔ تحصـیل الحق و مشـقهٔ البحث و ذلک موجب لمزید الأجر و الثواب، و کالجواب بأنه لو لم یشـتمل إلّا علی صـریح القول فی مـذهب لنفر ذلک سائر أرباب المذاهب فلم ینظروا فیه، لکنه لوجود التشـابه فیه أطمعهم فی النظر فیه و کـان فی ذلـک رجـاء أن یظفروا بـالحق فیؤمنوا به! و کـالجواب بـأن اشـتماله علی المتشـابه أوجب الاسـتعانهٔ بدلالـهٔ العقل، و فی ذلک خروج عن ظلمـهٔ التقلید و دخول فی ضوء النظر و الاجتهاد! و کالجواب بأن اشـتماله علی المتشابه أوجب البحث عن طرق التأویلات المختلفهٔ، و فی ذلک فائدهٔ التضلع بالفنون المختلفهٔ کعلم اللغهٔ و الصرف و النحو و أصول الفقه!. فهذه أجوبهٔ سـخیفهٔ ظاهرهٔ السـخافهٔ بأدنی نظر، و الذی یسـتحق الإیراد و البحث من الأجوبهٔ وجوه ثلاثهٔ: الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۰۰ الأوّل: أن اشتمال القرآن الکریم علی المتشابهات لتمحیص القلوب فی التصدیق به، فإنه لو کان کل ما ورد فی الکتاب معقولا واضـحا لا شبههٔ فیه عند أحد لما کان فی الإیمان شیء من معنی الخضوع لأمر اللّه تعالی و التسلیم لرسله. و فیه: أن

الخضوع هو نوع انفعال و تأثر من الضعيف فى مقابل القوى و الإنسان إنما يخضع لمن يدرك عظمته أو لما لا يدركه لعظمته و بهوره الإدراك كقدرة اللّه غير المتناهية و عظمته غير المتناهية و سائر صفاته التى إذا واجهها العقل رجع القهقرى لعجزه عن الإحاطة بها، و أما الأمور التى لا ينالها العقل لكنه يغتر و يغادر باعتقاد أنه يدركها فما معنى خضوعه لها؟ كالآيات المتشابهة التى يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها و هو لا يعقل. الثانى: أن اشتماله على المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث و التنقير لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التى لا يعمل فيها عامل الفكر، فإن العقل أعز القوى الإنسانية التى يجب تربيتها بتربية الإنسان. و فيه: أن اللّه تعالى أمر الناس بإعمال العقل و الفكر فى الآيات الآفاقية و الأنفسية إجمالا فى موارد من كلامه، و تفصيلا فى موارد أخرى كخلق السموات و الأرض و الجبال و الشجر و الدواب و الإنسان و اختلاف ألسنته و ألوانه، و ندب إلى التعقل و التفكر و السير فى الأرض و النظر فى أحوال الماضين، و حرض على العقل و الفكر، و مدح العلم بأبلغ المدح و فى ذلك غنى عن البحث فى أمور ليس إلّا مزالق للأقدام و مصارع للأفهام. الثالث: أن الأنبياء بعثوا إلى الناس و فيهم العامة و الخاصة، و الذكى و البليد و العالم و الجاهل، و كان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته و تشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، فالحرى فى أمثال هذه المعانى أن تلقى بحيث تفهمها الخاصة و لو بطريق الكناية و التعريض و يؤمر العامة فيها بالتسليم و تفويض الأمر إلى اللّه تعالى. و فيه: أن الكتاب كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التى تبين المتشابهات بالرجوع إليها، و لازم ذلك أن لا تتضمن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۱ المتشابهات أزيد مما تكشف عنه المحكمات، و عند ذلك يبقى السؤال (و هو أنه ما فائدة وجود المتشابهات فى الكتاب و لا حاجة إليها مع وجود المحكمات) على حاله، و منشأ الاشتباه أن المجيب أخذ المعانى نوعين متباينين: معان يفهمها جميع المخاطبين من العامة و الخاصة و هى مداليل المحكمات، و معان سنخها بحيث لا يتلقاها إلّا الخاصة من المعارف العالية و الحكم الدقيقة، فصارت بذلك المتشابهات لا ترجع معانيها إلى المحكمات، و قد مرّ أن ذلك مخالف لمنطق الآيات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضا و غير ذلك. و الذى ينبغى أن يقال: أن وجود المتشابه فى القرآن ضرورى ناشئ عن وجود التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا بالمعنى الذى أوضحناه للتأويل فيما مرّ. و يتضح ذلك بعض الاتضاح بإجادة التدبر فى جهات البيان القرآنى و التعليم الإلهى و الأمور التى بنيت عليها معارفه و الغرض الأقصى من ذلك و هى أمور: منها: أن اللّه سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذى تدور مداره المعارف القرآنية و الأحكام و القوانين و سائر ما يتضمنه التعليم الإلهى، و أن هذا التأويل الذى تستقبله و تتوجه إليه جميع هذه البيانات أمر تقصر عن نيله الأفهام و تسقط دون الارتقاء إليه العقول إلّا نفوس طهرهم اللّه و أزال عنهم الرجس، فإن لهم خاصة أن يمسوه. و هذا غاية ما يريده تعالى من الإنسان المجيب لدعوته فى ناحية العلم أن يهتدى إلى علم كتابه الذى هو تبيان كل شىء و مفتاحه التطهير الإلهى، و قد قال تعالى: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ «۱»، فجعل الغاية لتشريع الدين هى التطهير الإلهى. و هذا الكمال الإنسانى كسائر الكمالات المندوب إليها لا يظفر

(۱) المائدة- ۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۲ بكمالها إلّا أفراد خاصة، و إن كانت الدعوة متعلقة بالجميع متوجهة إلى الكل، فتربية الناس بالتربية الدينية إنما تثمر كمال التطهير فى أفراد خاصة و بعض التطهير فى آخرين، و يختلف ذلك باختلاف درجات الناس، كما أن الإسلام يدعو إلى حق التقوى فى العمل. قال تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «۱» و لكن لا يحصل كماله إلّا فى أفراد و فيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل، كل ذلك لاختلاف الناس فى طبائعهم و أفهامهم، و هكذا جميع الكمالات الاجتماع من حيث التربية و الدعوة، يدعو داعى الاجتماع إلى الدرجة القصوى من كل كمال كالعلم و الصنعة و الثروة و الراحة و غيرها لكن لا ينالها إلّا البعض، و من دونه ما دونها على اختلاف مراتب الاستعدادات. و بالحقيقة أمثال هذه الغايات ينالها المجتمع من غير تخلف دون كل فرد منه. و منها: أن القرآن قطع بأن الطريق الوحيد إلى إيصال الإنسان إلى هذه الغاية الشريفة تعريف نفس الإنسان لنفسه بتربيته فى ناحيتى العلم و العمل: أما فى ناحية العلم فبتعليمه الحقائق المربوطة به من المبدأ و المعاد و ما بينهما من حقائق العالم حتى يعرف نفسه بما ترتبط

به من الواقعيات معرفة حقيقية. و أما فى ناحية العمل فبتحميل قوانين اجتماعية عليه بحيث تصلح شأن حياته الاجتماعية، و لا تشغله عن التخلص إلى عالم العلم و العرفان، ثم بتحميل تكاليف عبادية يوجب العمل بها و المزاولة عليها توجه نفسه، و خلوص قلبه إلى المبدأ و المعاد، و إشرافه على عالم المعنى و الطهارة و التجنب عن قذارة الماديات و ثقلها. و أنت إذا أحسنت التدبر فى قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ «۲»، و ضممته إلى ما سمعت إجماله فى قوله تعالى: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ الآية، و إلى قوله تعالى: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ «۳»، و قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا

(۱) آل عمران- ۱۰۲. (۲) فاطر- ۱۰.

(۳) المائدة- ۱۰۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۳ الْعِلْمَ دَرَجاتٍ «۱»، و ما يشابهه من الآيات اتضح لك الغرض الإلهى فى تشريع الدين و هداية الإنسان إليه، و السبيل الذى سلكه لذلك فافهم. و يتفرع على هذا البيان نتيجة مهمة: هى أن القوانين الاجتماعية فى الإسلام مقدمة للتكاليف العبادية مقصودة لأجلها، و التكاليف العبادية مقدمة للمعرفة باللّه و بآياته، فأدنى الإخلال أو التحريف أو التغيير فى الأحكام الاجتماعية من الإسلام يوجب فساد العبودية و فساد العبودية يؤدى إلى اختلال أمر المعرفة. و هذه النتيجة- على أنها واضحة التفرع على البيان- تؤيدها التجربة أيضا: فإنك إذا تأملت جريان الأمر فى طروق الفساد فى شئون الدين الإسلامى بين هذه الأمة و أمعنت النظر فيه: من أين شرع و فى أين ختم وجدت أن الفتنة ابتدأت من الاجتماعيات ثم توسطت فى العباديات ثم انتهت إلى رفض المعارف. و قد ذكرناك فيما مرّ: أن الفتنة شرعت باتباع المتشابهات و ابتغاء تأويلها و لم يزل الأمر على ذلك حتى اليوم. و منها: أن الهداية الدينية إنما بنيت على نفى التقليد عن الناس و ركوز العلم بينهم ما استطيع، فإن ذلك هو الموافق لغايتها التى هى المعرفة و كيف لا؟ و لا يوجد بين كتب الوحى كتاب، و لا بين الأديان دين يعظمان من أمر العلم و يحرضان عليه بمثل ما جاء به القرآن و الإسلام!. و هذا المعنى هو الموجب لأن يبيّن الكتاب للإنسان حقائق المعارف أولا، و ارتباط ما شرعه له من الأحكام العملية بتلك الحقائق ثانيا، و بعبارة أخرى أن يفهمه: أنه موجود مخلوق للّه تعالى خلقه بيده و وسط فى خلقه و بقائه ملائكته و سائر خلقه من سماء و أرض و نبات و حيوان و مكان و زمان و ما عداها، و أنه سائر إلى معاده و ميعاده سيرا اضطراريا، و كادح إلى ربه كدحا فملاقيه ثم يجزى جزاء ما عمله، أيما إلى جنة، و أيما إلى نار فهذه طائفة من المعارف.

(۱) المجادلة- ۱۱. الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۴ ثم يفهمه أن الأعمال التى تؤديه إلى سعادة الجنة ما هى، و ما تؤديه إلى شقوة النار ما هى؟ أى يبين له الأحكام العبادية و القوانين الاجتماعية، و هذه طائفة أخرى. ثم يبين له أن هذه الأحكام و القوانين مؤدية إلى السعادة أى يفهمه أن هذه الطائفة الثانية مرتبطة بالطائفة الأولى، و أن تشريعها و جعلها للإنسان إنما هو لمراعاة سعادته لاشتمالها على خير الإنسان فى الدنيا و الآخرة، و هذه طائفة ثالثة. و ظاهر عندك أن الطائفة الثانية بمنزلة المقدمة، و الطائفة الأولى بمنزلة النتيجة، و الطائفة الثالثة بمنزلة الرابط الذى يربط الثانية بالأولى و دلالة الآيات على كل واحدة من هذه الطوائف المذكورة واضحة و لا حاجة إلى إيرادها. و منها: أنه لما كانت عامة الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس و لا يرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادة و الطبيعة، و كان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية إلى الورود فى إدراك المعانى و كليات القواعد و القوانين يختلف أمره باختلاف الوسائل التى يسرت له الورود فى عالم المعانى و الكليات كان ذلك موجبا لاختلاف الناس فى فهم المعانى الخارجة عن الحس و المحسوس اختلافا شديدا ذا عرض عريض على مراتب مختلفة، و هذا أمر لا ينكره أحد. و لا يمكن إلقاء معنى من المعانى إلى إنسان إلّا من طريق معلوماته الذهنية التى تهيأت عنده فى خلال حياته و عيشته، فإن كان مأنوسا بالحس فمن طريق المحسوسات على قدر ما رقى إليه من مدارج الحس كما يمثل لذة النكاح للصبى بحلاوة الحلواء، و إن كان نائلا للمعانى الكلية فبما نال و على قدر ما نال، و هذا ينال المعانى من البيان الحسى و العقلى معا بخلاف المأنوس بالحس. ثم إن الهداية الدينية لا تختص بطائفة دون طائفة من الناس بل تعم جميع الطوائف و تشمل عامّة الطبقات، و هو ظاهر. و هذا المعنى أعنى اختلاف الأفهام و عموم أمر الهداية مع ما عرفت الإعجاز و التحدى

فی القرآن الکریم، ص: ۱۰۵ من وجود التأویل للقرآن هو الموجب أن یساق البیانات مساق الأمثال و هو أن یتخذ ما یعرفه الإنسان و یعهده ذهنه من المعانی فیبین به ما لا یعرفه لمناسبة ما بینهما نظیر توزین المتاع بالمثاقیل و لا مسانخة بینهما فی شکل أو صورة أو حجم أو نوع إلّا ما بینهما من التناسب وزنا. و الآیات القرآنیة المذکورة سابقا کقوله تعالی: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۱»، و ما یشابهه من الآیات و إن بینت هذا الأمر بطریق الإشارة و الکنایة، لکن القرآن لم یکتف بذلک دون أن بیّنه بما ضربه مثلا فی أمر الحق و الباطل فقال تعالی: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِیَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رابِیاً وَ مِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ «۲»، فبین أن حکم المثل جار فی أفعاله تعالی کما هو جار فی أقواله، ففعله تعالی کقوله الحق إنما قصد منهما الحق الذی یحویانه و یصاحب کلا منهما أمور غیر مقصودة و لا نافعة تعلوهما و تربوهما لکنها ستزول و تبطل، و یبقی الحق الذی ینفع الناس، و إنما یزول و یزهق بحق آخر هو مثله، و هذا کالآیة المتشابهة تتضمن من المعنی حقا مقصودا، و یصاحبه و یعلو علیه بالاستباق إلی الذهن معنی آخر باطل غیر مقصود، لکنه سیزول بحق آخر یظهر الحق الأول علی الباطل الذی کان یعلوه، لیحق الحق بکلماته و یبطل الباطل و لو کره المجرمون، و الکلام فی انطباق هذا المثل علی أفعاله الخارجیة المتقررة فی عالم الکون کالکلام فی أقواله عز من قائل. و بالجملة: المتحصل من الآیة الشریفة: أن المعارف الحقة الإلهیة کالماء الذی أنزله اللّه تعالی من السماء هی فی نفسها ماء فحسب، من غیر تقیید بکمیّة و لا کیفیة، ثم إنها کالسیل السائل فی الأودیة تتقدر بأقدار مختلفة من حیث السعة و الضیق، و هذه الأقدار أمور ثابتة کل فی محله کالحال فی أصول المعارف و الأحکام التشریعیة و مصالح الأحکام التی (______________________________ ۱) الزخرف- ۳ و ۴. (۲) الرعد- ۱۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۰۶ ذکرنا فیما مرّ أنها روابط تربط الأحکام بالمعارف الحقة و هذا حکمها فی نفسها مع قطع النظر عن البیان اللفظی، و هی فی مسیرها ربما صحبت ما هو کالزبد یظهر ظهورا ثم یسرع فی الزوال و ذلک کالأحکام المنسوخة التی تنسخها النواسخ من الآیات، فإن المنسوخ مقتضی ظاهر طباعه أن یدوم لکن الحکم الناسخ یبطل دوامه و یضع مکانه حکما آخر. هذا بالنظر إلی نفس هذه المعارف مع قطع النظر عن ورودها فی وادی البیان اللفظی. و أما المعارف الحقة من حیث کونها واردة فی ظرف اللفظ و الدلالة فإنها بورودها أودیة الدلالات اللفظیة تتقدر بأقدارها، تتشکل بأشکال المرادات الکلامیة بعد إطلاقها، و هذه أقوال ثابتة من حیث مراد المتکلم بکلامه، إلّا أنها مع ذلک أمثال یمثل بها أصل المعنی المطلق غیر المتقدر، ثم إنها بمرورها فی الأذهان المختلفة تحمل معانی غیر مقصودة کالزبد فی السیل، لأن الأذهان من جهة ما تخزنه من المرتکزات و المألوفات تتصرف فی المعانی الملقاة إلیها، و جلّ هذا التصرف إنما هو فی المعانی غیر المألوفة کالمعارف الأصلیة، و مصالح الأحکام و ملاکاتها کما مرّ، و أما الأحکام و القوانین فلا تصرف فیها مع قطع النظر عن ملاکاتها فإنها مألوفة، و من هنا یظهر أن المتشابهات إنما هی الآیات من حیث اشتمالها علی الملاکات و المعارف، دون متن الأحکام و القوانین الدینیة. و منها: أنه تحصل من البیان السابق: أن البیانات اللفظیة القرآنیة أمثال للمعارف الحقة الإلهیة لأن البیان نزل فی هذه الآیات إلی سطح الأفهام العامة التی لا تدرک إلّا الحسیات و لا تنال المعانی الکلیة إلّا فی قالب الجسمانیات، و لما استلزم ذلک فی إلقاء المعانی الکلیة المجردة عن عوارض الأجسام و الجسمانیات أحد محذورین: فإن الأفهام فی تلقیها المعارف المرادة منها إن جمدت فی مرتبة الحس و المحسوس انقلبت الأمثال بالنسبة إلیها حقائق ممثلة و فیه بطلان الحقائق و فوت المرادات و المقاصد و إن لم تجمد و انتقلت إلی المعانی المجردة بتجرید الأمثال عن الخصوصیات غیر الدخیلة لم یؤمن من الزیادة و النقیصة. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۰۷ نظیر ذلک أنها لو ألقی إلینا المثل السائر: عند الصباح یحمد القوم السری أو تمثل لنا بقول صخر: أهم بأمر الحزم لا أستطیعه و قد حیل بین العیر و النزوان فإنا من جهة سبق عهد الذهن بالقصة أو الأمر الممثل له نجرّد المثل عن الخصوصیات المکتنفة بالکلام کالصباح و القوم و السری، و نفهم من ذلک أن المراد: أن حسن تأثیر عمل و تحسین فعله إنما یظهر إذا فرغ منه و بدا أثره و أما و هو

ما دام الإنسان مشتغلا به محسا تعب فعله فلا يقدر قدره، و يظهر ذلک تجريد ما تمثل به من الشعر، و أما إذا لم نعهد الممثل و جمدنا على الشعر أو المثل خفى عنا الممثل و عاد المثل خبرا من الأخبار، و لو لم نجمد و انتقلنا إجمالا إلى أنه مثل لم يمكنا تشخيص المقدار الذى يجب طرحه بالتجريد و ما يجب حفظه للفهم و هو ظاهر. و لا مخلص عن هذين المحذورين إلّا بتفريق المعانى الممثل لها إلى أمثال مختلفة و تقليبها فى قوالب متنوعة حتى يفسر بعضها بعضا، و يوضح بعضها أمر بعض، فيعلم بالتدافع الذى بينها أولا: أن البيانات أمثال و لها فى ما وراءها حقائق ممثلة، و ليست مقاصدها و مراداتها مقصورة على اللفظ المأخوذ من مرتبة الحس و المحسوس و ثانيا: بعد العلم بأنها أمثال: يعلم بذلک المقدار الذى يجب طرحه من الخصوصيات المكتنفة بالكلام، و ما يجب حفظه منها للحصول على المرام، و إنما يحصل ذلک بأن هذا يتضمن نفى بعض الخصوصيات الموجودة فى ذلک، و ذاک نفى بعض ما فى هذا. و إيضاح المقاصد المبهمة و المطالب الدقيقة بإيراد القصص المتعددة و الأمثال و الأمثلة الكثيرة المتنوعة أمر دائر فى جميع الألسنة و اللغات من غير اختصاص بقوم دون قوم، و لغة دون لغة، و ليس ذلک إلّا لأن الإنسان يشعر بقريحة البيان مساس حاجته إلى نفى الخصوصيات الموهمة لخلاف المراد فى القصة الواحدة أو المثل الواحد بالخصوصيات النافية الموجودة فى قصة أخرى مناسبة أو مثل آخر مناسب. فقد تبين أن من الواجب أن يشتمل القرآن الكريم على الآيات المتشابهة و أن يرفع التشابه الواقع فى آية بالإحكام الواقع فى آية أخرى، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۸ و اندفع بذلک الإشكال باشتمال القرآن على المتشابهات لكونها مخلة لغرض الهداية و البيان. و قد ظهر من جميع ما تقدم من الأبحاث على طولها أمور: الأول: أن الآيات القرآنية تنقسم إلى قسمين: محكم و متشابه، و ذلک من جهة اشتمال الآية وحدها على مدلول متشابه و عدم اشتمالها. الثانى: أن لجميع القرآن محكمه و متشابهه تأويلا، و أن التأويل ليس من قبيل المفاهيم اللفظية بل من الأمور الخارجية، نسبته إلى المعارف و المقاصد المبينة نسبة الممثل إلى المثال، و أن جميع المعارف القرآنية أمثال مضروبة للتأويل الذى عند اللّه. الثالث: أن التأويل يمكن أن يعلمه المطهرون و هم راسخون فى العلم. الرابع: أن البيانات القرآنية أمثال مضروبة لمعارفها و مقاصدها، و هذا المعنى غير ما ذكرناه فى الأمر الثانى من كون معارفه أمثالا و قد أوضحناه فيما مرّ. الخامس: أن من الواجب أن يشتمل القرآن على المتشابهات، كما أن من الواجب أن يشتمل على المحكمات. السادس: أن المحكمات أم الكتاب إليها ترجع المتشابهات رجوع بيان. السابع: أن الإحكام و التشابه وصفان يقبلان الإضافة و الاختلاف بالجهات بمعنى أن آية ما يمكن أن تكون محكمة من جهة، و متشابهة من جهة أخرى فتكون محكمة بالإضافة إلى آية و متشابهة بالإضافة إلى أخرى، و لا مصداق للمتشابه على الإطلاق فى القرآن، و لا مانع من وجود محكم على الإطلاق. الثامن: أن من الواجب أن يفسر بعض القرآن بعضا. التاسع: أن للقرآن مراتب مختلفة من المعنى، مترتبة طولا من غير أن يكون الجميع فى عرض واحد فيلزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۹ واحد، أو مثل عموم المجاز، و لا هى من قبيل اللوازم المتعددة لملزوم واحد، بل هى معان مطابقية يدل على كل واحد منها اللفظ بالمطابقة بحسب مراتب الأفهام. و لتوضيح ذلک نقول: قال اللّه تبارک و تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «۱»، فأنبأ أن للتقوى الذى هو لانتهاء عما نهى اللّه عنه و الائتمار بما أمر اللّه به مرتبة هى حق التقوى، و يعلم بذلک أن هناک من التقوى ما هو دون هذه المرتبة الحقة، فللتقوى الذى هو بوجه العمل الصالح مراتب و درجات بعضها فوق بعض. و قال أيضا: أ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ «۲» فبين أن للعمل مطلقا سواء كان صالحا أو طالحا درجات و مراتب، و الدليل على أن المراد بها درجات العمل قوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ. و نظير الآية قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «۳» و قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ «۴» و الآيات فى هذا المعنى كثيرة، و فيها ما يدل على أن درجات الجنة و دركات النار بحسب مراتب الأعمال و درجاتها. و من المعلوم أن العمل من أى نوع كان هو من رشحات العلم يترشح من اعتقاد قلبى يناسبه، و قد استدل تعالى على كفر اليهود و على فساد ضمير المشركين و على نفاق المنافقين من المسلمين و على إيمان عدة من الأنبياء و المؤمنين بأعمالهم و أفعالهم فى آيات كثيرة جدا يطول ذكرها، فالعمل

کیف کان یلازم ما یناسبه من العلم و یدل علیه. و بالعکس یستلزم کل نوع من العمل ما یناسبه من العلم و یحصله و یرکزه فی النفس کمـــا قـــال تعـــالی: وَ الَّذِیـــنَ جاهَـــدُوا فِینـــا لَنَهْـــدِیَنَّهُمْ سُـــبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ (______________________________١) آل عمران– ١٠٢. (٢) آل عمران– ١۶٢ و ١۶٣. (٣) الأحقاف– ١٩. (۴) الأنعام– ١٣٢. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ١١٠ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ «١»، و قال تعالی: وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ «٢»، و قال أیضا: ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوای أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ «٣»، و قال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ «۴»، و الآیات فی هذا المعنی أیضا کثیرة تدل الجمیع علی أن العمل صالحا کان أو طالحا یولد من أقسام المعارف و الجهالات (و هی العلوم المخالفة للحق) ما یناسبه. و قال تعالی– و هو کالکلمة الجامعة فی العمل الصالح و العلم النافع–: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ «۵»، فبین أن شأن الکلم الطیب و هو الاعتقاد الحق أن یصعد إلی اللّه تعالی و یقرب صاحبه منه، و شأن العمل الصالح أن یرفع هذا العلم و الاعتقاد. و من المعلوم أن ارتفاع العلم فی صعوده إنما هو بخلوصه من الشک و الریب و کمال توجه النفس إلیه و عدم تقسم القلب فیه و فی غیره (و هو مطلق الشرک) فکلما کمل خلوصه من الشک و الخطرات اشتد صعوده و ارتفاعه. و لفظ الآیة لا یخلو عن دلالة علی ذلک، فإنها عبرت فی الکلم الطیب بالصعود و وصفت العمل بالرفع، و الصعود یقابل النزول کما أن الرفع یقابل الوضع، و هما أعنی الصعود و الارتفاع وصفان یتصف بهما المتحرک من السفل إلی العلوم بنسبته إلی الجانبین فهو صاعد بالنظر إلی قصده العلو و اقترابه منه، و مرتفع من جهة انفصاله من السفل و ابتعاده منه، فالعمل یبعد الإنسان و یفصله من الدنیا و الإخلاد إلی الأرض بصرف نفسه عن التعلق بزخارفها الشاغلة و التشتت و التفرق بهذه المعلومات الفانیة غیر الباقیة و کلما زاد الرفع و الارتفاع زاد صعود الکلم الطیب، و خلصت المعرفة عن شوائب الأوهام و قذارات الشکوک، و من المعلوم أیضا کما مرّ: أن العمل الصالح ذو مراتب و درجات فلکل درجـــة مـــن العمـــل الصالـــح رفـــع الکلـــم الطیـــب و تـــولید (______________________________١) العنکبوت– ۶٩. (٢) الحجر– ٩٩. (٣) الروم– ١٠. (۴) البراءة– ٧٧. (۵) فاطر– ١٠. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ١١١ العلوم و المعارف الحقة الإلهیة علی ما یناسب حالها. و الکلام فی العمل الطالح و وضعه الإنسان نظیر الکلام فی العمل الصالح و رفعه. فظهر أن للناس بحسب مراتب قربهم و بعدهم منه تعالی مراتب مختلفة من العمل و العلم، و لازمه أن یکون ما یتلقاه أهل واحدة من المراتب و الدرجات غیر ما یتلقاه أهل المرتبة و الدرجة الأخری التی فوق هذه أو تحتها، فقد تبین أن للقرآن معان مختلفة مترتبة. و قد ذکر اللّه سبحانه أصنافا من عباده، و خص کل صنف بنوع من العلم و المعرفة لا یوجد فی الصنف الآخر کالمخلصین و خص بهم العلم بأوصاف ربهم حق العلم، قال تعالی: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ «١» و خص بهم أشیاء أخر من المعرفة و العلم سیجیء بیانها إن شاء اللّه تعالی، و کالموقنین و خص بهم مشاهدة ملکوت السموات و الأرض، قال تعالی: وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْراهِیمَ مَلَکُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ «٢» و کالمنیبین و خص بهم التذکر، قال تعالی: وَ ما یَتَذَکَّرُ إِلَّا مَنْ یُنِیبُ «٣» و کالعالمین و خص بهم عقل أمثال القرآن، قال تعالی: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «۴»، و کأنهم أولو الألباب و المتدبرون لقوله تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها «۵»، و لقوله تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۶»، فإن مؤدی الآیات الثلاث یرجع إلی معنی واحد و هو العلم بمتشابه القرآن و رده إلی محکمه، و کالمطهرین خصّهم اللّه بعلم تأویل الکتاب، قال تعالی: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ. فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ. لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «٧»، و کالأولیاء و هم أهل الوله و المحبة للّه و خص بهم أنهم لا (______________________________١) الصافات– ١۵٩ و ١۶٠. (٢) الأنعام– ٧۵. (٣) المؤمن– ١٣. (۴) العنکبوت– ۴٣. (۵) محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم– ٢۴. (۶) النساء– ٨٢. (٧) الواقعة– ٧٧ إلی ٧٩. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ١١٢ یلتفتون إلی شیء إلّا اللّه سبحانه و لذلک لا

یخـافون شـیئا و لاـ یحزنون لشـیء، قـال تعـالی: أَلا ـ إِنَّ أَوْلِیـاءَ اللَّهِ لا ـ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا ـ هُمْ یَحْزَنُونَ «۱»، و کـالمقربین و المجتـبین و الصـدیقین و الصـالحین و المؤمنین و لکـل منهم خواص من العلم و الإـدراک یختصون بها، سنبحث عنها فی المحالّ المناسـبة لها. و نظیر هذه المقامات الحسنة مقامات سوء فی مقابلها، و لها خواص ردیئة فی باب العلم و المعرفة، و لها أصحاب کالکافرین و المنافقین و الفاسـقین و الظـالمین و غیرهـم، و لهـم أنصباء من سـوء الفهـم و رداءة الإـدراک لآیـات اللّه و معـارفه الحقـة، طوینـا ذکرهـا إیثـارا للاختصار، و سـنتعرض لها فی خلال أبحاث هذا الکتاب إن شاء اللّه. العاشر: أن للقرآن اتساعا من حیث انطباقه علی المصادیق و بیان حالها فالآیـة منه لا تختص بمورد نزولها بل تجری فی کل مورد یتحد مع مورد النزول ملاکا کالأمثال التی لا تختص بمواردها الأول، بـــل تتعـــداها إلی مـــا یناســـبها و هـــذا المعنی هـــو المســـمی بجری القرآن ... (____۱) یـونس- ۶۲. الإعجـاز و التحـدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۳

الفصل السادس المحکم و المتشابه فی ضوء الروایات

الفصل السادس المحکم و المتشابه فی ضوء الروایات فی تفسیر العیاشـی: سـئل أبو عبد اللّه علیه السّـلام عن المحکم و المتشابه قال: المحکم ما یعمل به و المتشابه ما اشتبه علی جاهله. أقول: و فیه تلویح إلی أن المتشابه مما یمکن العلم به. و فیه أیضا: عنه علیه السّلام أن القرآن محکم و متشـابه: فأمـا المحکم فتؤمن به و تعمل به و تـدین، و أما المتشابه فتؤمن به و لا تعمل به، و هو قول اللّه عز و جل: فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَـةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِـخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا «۱». و الراسـخون فی العلم هم آل محمد. أقول: و سیجیء کلام فی معنی قوله علیه السّلام: و الراسخون فی العلم هم آل محمـد. و فیه أیضـا عن مسعدة بن صدقـة قـال: سـألت أبا عبـد اللّه علیه السّـلام عن الناسـخ و المنسوخ و المحکم و المتشابه قال: الناسـخ الثابت المعمول به، و المنسوخ ما قـد کان یعمل به ثم جاء ما نسـخه، و المتشابه ما اشـتبه علی جاهله. قال و فی روایة: الناسـخ الثـــابت، و المنســـوخ مـــا مضـــی، و المحکـــم مـــا یعمـــل بـــه، و المتشـــابه مـــا یشـــبه بعضـــه بعضـــا. (____۱) آل عمران- ۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۴ و فی الکافی عن الباقر علیه السّلام فی حدیث قال: فالمنسوخات من المتشابهات. و فی العیون عن الرضا علیـه السّـلام: مـن رد متشـابه القرآن إلی محکمه هـدی إلی صـراط مسـتقیم. ثم قـال: إن فی أخبارنـا متشابهـا کمتشـابه القرآن فردوا متشابهها إلی محکمها، و لا تتبعوا متشابهها فتضـلوا. أقول: الأخبار کما تری متقاربة فی تفسیر المتشابه، و هی تؤید ما ذکرناه فی البیان السابق: أن التشابه یقبل الارتفاع، و أنه إنما یرتفع بتفسیـر المحکم له. و أما کون المنسوخات من المتشابهات فهو کذلک کما تقدم و وجه تشابهها ما یظهر منها من اسـتمرار الحکم و بقائه، و یفسـره الناسـخ ببیان أن اسـتمراره مقطوع. و أما ما ذکره علیه السّـلام فی خبر العیون: إن فی أخبارنـا متشابهـا کمتشـابه القرآن و محکمـا کمحکم القرآن، فقـد وردت فی هـذا المعنی عنهم علیهم السّـلام روایات مسـتفیضة، و الاعتبار یساعده فإن الأخبار لا تشـتمل إلّا علی ما اشـتمل علیه القرآن الشریف، و لا تبین إلّا ما تعرض له و قد عرفت فیما مرّ: أن التشـابه من أوصـاف المعنی الـذی یـدل علیه اللفظ و هو کونه بحیث یقبل الانطباق علی المقصود و علی غیره، لا من أوصاف اللفـظ من حیث دلاـلته علی المعنی نظیر الغرابـة و الإجمـال، و لاـ من أوصـاف الأـعم من اللفظ و المعنی. و بعبارة أخری: إنما عرض التشابه لما عرض علیه من الآیات لکون بیاناتها جاریة مجری الأمثال بالنسبة إلی المعارف الحقة الإلهیة، و هذا المعنی بعینه موجود فی الأخبـار ففیها متشابه و محکم کما فی القرآن، و قـد ورد عن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنه قال: إنا معاشـر الأنبیاء نکلم الناس علی قـدر عقولهم. و فی تفسـیر العیاشـی عن جعفر بن محمـد، عن أبیه علیهم السّـلام: أن رجلاـ قـال لأمیر المؤمنین علیه السّـلام: هل تصف لنـا ربنـا نزداد له حبـا و معرفـة. فغضب و خطب النـاس فقـال فیمـا قـال: علیـک یا عبـد اللّه بما دلک علیه القرآن من صـفته، و

تقدمک فیه الرسول من معرفته، و استضیء من نور هدایته فإنما هی نعمة و حکمة أوتیتها، فخذ ما أوتیت و کن من الشاکرین و ما کلفک الشیطان علیه مما لیس علیک فی الکتاب فرضه، و لا فی سنّة الرسول و أئمة الهدی الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۵ أمره فکل علمه إلی اللّه و لا تقدر عظمة اللّه و اعلم یا عبد اللّه: أن الراسخین فی العلم الذین أغناهم اللّه عن الاقتحام فی السدد المضروبة دون الغیوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسیره من الغیب المحجوب فقالوا آمنا به کل من عند ربنا، و قد مدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم یحیطوا به علما، و سمی ترکهم التعمّق فیما لم یکلفهم البحث عنه منهم رسوخا فاقتصر علی ذلک و لا تقدر عظمة اللّه علی قدر عقلک فتکون من الهالکین. أقول: قوله علیه السّلام: و اعلم یا عبد اللّه أن الراسخین فی العلم ... إلخ. ظاهر فی أنه علیه السّلام أخذ الواو فی قوله تعالی: وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ، للاستئناف دون العطف کما استظهرناه من الآیة، و مقتضی ذلک أن ظهور الآیة لا یساعد علی کون الراسخین فی العلم عالمین بتأویله، لا أنه یساعد علی عدم إمکان علمهم به، فلا ینافی وجود بیان آخر یدل علیه کما تقدم بیانه و هو ظاهر بعض الأخبار عن أئمة أهل البیت کما سیأتی. و قوله علیه السّلام: الذین أغناهم اللّه عن الاقتحام فی السدد المضروبة دون الغیوب، خبر أن و الکلام ظاهر فی تحضیض المخاطب و ترغیبه أن یلزم طریقة الراسخین فی العلم بالاعتراف بالجهل فیما جهله فیکون منهم، و هذا دلیل علی تفسیره علیه السّلام الراسخین فی العلم بمطلق من لزم ما علمه و لم یتعد إلی ما جهله و المراد بالغیوب المحجوبة بالسدد: المعانی المرادة بالمتشابهات الخفیة عن الأفهام العامة و لذا أردفه بقوله ثانیا: فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسیره، و لم یقل بجملة ما جهلوا تأویله فافهم. و فی الکافی عن الصادق علیه السّلام: نحن الراسخون فی العلم و نحن نعلم تأویله. أقول: و الروایة لا تخلو عن ظهور فی کون قوله تعالی وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ معطوفا علی المستثنی فی قوله: وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ لکن هذا الظهور یرتفع بما مرّ من البیان و ما تقدم من الروایة، و لا یبعد کل البعد أن یکون المراد بالتأویل هو المعنی المراد بالمتشابه فإن هذا المعنی من التأویل المساوق لتفسیر المتشابه کان شائعا فی الصدر الأول بین الناس. و أما قوله علیه السّلام: نحن الراسخون فی العلم، و قد تقدم فی روایة للعیاشی عن الصادق علیه السّلام قوله: و الراسخون فی العلم، هم آل محمد، الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۶ و هذه الجملة مرویة فی روایات أخر أیضا فجمیع ذلک من باب الجری و الانطباق کما یشهد بذلک ما تقدم و یأتی من الروایات. و فی الکافی أیضا عن هشام بن الحکم قال: قال لی أبو الحسن موسی بن جعفر علیه السّلام إلی أن قال: یا هشام أن اللّه حکی عن قوم صالحین أنهم قالوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هدیتنا وهب لنا من لدنک رحمة إنک أنت الوهاب، علموا أن القلوب تزیغ و تعود إلی عماها و رداها، إنه لم یخف اللّه من لم یعقل عن اللّه، و من لم یعقل عن اللّه لم یعقد قلبه علی معرفة ثابتة ینظرها و یجد حقیقتها فی قلبه، و لا یکون أحد کذلک إلّا من کان قوله لفعله مصدقا، و سره لعلانیته موافقا، لأن اللّه عزّ اسمه لم یدل علی الباطن الخفی من العقل إلّا بظاهر منه و ناطق عنه. أقول: قوله علیه السّلام: لم یخف اللّه من لم یعقل عن اللّه، فی معنی قوله تعالی: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ و قوله علیه السّلام: و من لم یعقل عن اللّه .... إلخ أحسن بیان لمعنی الرسوخ فی العلم لأن الأمر ما لم یعقل حق التعقل لم ینسد طرق الاحتمالات فیه، و لم یزل القلب مضطربا فی الإذعان به، و إذا تمّ التعقل و عقد القلب علیه لم یخالفه باتباع ما یخالفه من الهوی فکان ما فی قلبه هو الظاهر فی جوارحه و کان ما یقوله هو الذی یفعله، و قوله: و لا یکون أحد کذلک ... إلخ بیان لعلامة الرسوخ فی العلم. و فی الدر المنثور أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن أنس و أبی أمامة و وائلة بن أسقف و أبی الدرداء أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل عن الراسخین فی العلم فقال: من برت یمینه و صدق لسانه و استقام قلبه، و من عف بطنه و فرجه فذلک من الراسخین فی العلم. أقول: و یمکن توجیه الروایة بما یرجع إلی معنی الحدیث السابق. و فی الکافی عن الباقر علیه السّلام: أن الراسخین فی العلم من لا یختلف فی علمه. أقول: و هو منطبق علی الآیة، فإن الراسخین فی العلم قوبل به فیها الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۷ قوله: الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ، فیکون رسوخ العلم عدم اختلاف العالم و ارتیابه. و فی الدر المنثور أخرج ابن أبی شیبة و أحمد و الترمذی و ابن جریر و الطبرانی و ابن مردویه عن أم سلمة: أن رسول اللّه کان یکثر فی دعائه أن یقول: اللهم مقلب القلوب ثبت قلبی علی دینک. قلت: یا رسول اللّه و

إن القلوب لتتقلب؟ قال نعم ما خلق اللّه من بشر من بنی آدم إلّا و قلبه بین إصبعین من أصابع اللّه فإن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه، الحدیث. أقول: و روی هذا المعنی بطرق عدیدة عن عدة من الصحابة کجابر و نواس بن شمعان و عبد اللّه بن عمر و أبی هریرة، و المشهور فی هذا الباب ما فی حدیث نواس: قلب ابن آدم بین إصبعین من أصابع الرحمن. و قد روی اللفظة (فیما أظن) الشریف الرضی فی المجازات النبویة. و روی عن علی علیه السّلام أنه قیل له: هل عندکم شیء من الوحی؟ قال لا و الذی فلق الحبة و برأ النسمة إلّا أن یعطی اللّه عبدا فهما فی کتابه. أقول: و هو من غرر الأحادیث، و أقل ما یدل علیه: أن ما نقل من أعاجیب المعارف الصادرة عن مقامه العلمی الذی یدهش العقول مأخوذ من القرآن الکریم. و فی الکافی عن الصادق عن أبیه عن آبائه علیهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أیها الناس إنکم فی دار هدنة، و أنتم علی ظهر سفر، و السیر بکم سریع، و قد رأیتم اللیل و النهار و الشمس و القمر یبلیان کل جدید و یقربان کل بعید، و یأتیان بکل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز، قال: فقام المقداد ابن الأسود فقال: یا رسول اللّه و ما دار الهدنة؟ فقال: دار بلاغ و انقطاع، فإذا التبست علیکم الفتن کقطع اللیل المظلم فعلیکم بالقرآن فإنه شافع مشفع، و ماحل مصدق، و من جعله أمامه قاده إلی الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلی النار، و هو الدلیل یدل علی خیر سبیل، و هو کتاب فیه تفصیل و بیان و تحصیل، و هو الفصل لیس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حکم و باطنه علم، ظاهره أنیق و باطنه عمیق، له تخوم و علی تخومه تخوم، لا- تحصی عجائبه، و لا- تبلی غرائبه، فیه مصابیح الهدی و منار الحکمة، و دلیل الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۸ علی المعرفة لمن عرف الصفة، فلیجل جال بصره، و لیبلغ الصفة نظره، ینج من عطب، و یخلص من نشب، فإن التفکر حیاة قلب البصیر، کما یمشی المستنیر فی الظلمات، فعلیکم بحسن التخلص، و قلة التربص. أقول: و رواه العیاشی فی تفسیره إلی قوله: فلیجل جال. و فی الکافی و تفسیر العیاشی أیضا عن الصادق علیه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم القرآن هدی من الضلالة، و تبیان من العمی و استقالة من العثرة و نور من الظلمة و ضیاء من الأحداث، و عصمة من الهلکة، و رشد من الغوایة و بیان من الفتن، و بلاغ من الدنیا إلی الآخرة، و فیه کمال دینکم، و ما عدل أحد من القرآن إلّا إلی النار. أقول: و الروایات فی هذا المساق کثیرة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمة من أهل بیته علیهم السّلام. و فی تفسیر العیاشی عن الفضیل بن یسار قال: سألت أبا جعفر علیه السّلام عن هذه الروایة: ما فی القرآن آیة إلّا و لها ظهر و بطن، و ما فیه حرف إلّا و له حد و لکل حد مطلع، ما یعنی بقوله: ظهر و بطن؟ قال: ظهره تنزیله و بطنه تأویله، منه ما مضی و منه ما لم یکن بعد، یجری کما یجری الشمس و القمر، کلما جاء منه شیء وقع، قال اللّه: وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ، نحن نعلمه. أقول: الروایة المنقولة فی ضمن الروایة هی ما روته الجماعة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بألفاظ مختلفة و إن کان المعنی واحدا کما فی تفسیر الصافی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن للقرآن ظهرا و بطنا و حدا و مطلعا. و فیه عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا: إن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلی سبعة أبطن. و قوله علیه السّلام: منه ما مضی و منه ما یأتی، ظاهره رجوع الضمیر إلی القرآن باعتبار اشتماله علی التنزیل و التأویل فقوله: یجری کما یجری الشمس و القمر، یجری فیهما معا، فینطبق فی التنزیل علی الجری الذی اصطلح علیه الأخبار فی انطباق الکلام بمعناه علی المصداق کانطباق قوله: الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۱۹ یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ «۱»، علی کل طائفة من المؤمنین الموجودین فی الأعصار المتأخرة عن زمان نزول الآیة، و هذا نوع من الانطباق، و کانطباق آیات الجهاد علی جهاد النفس، و انطباق آیات المنافقین علی الفاسقین من المؤمنین، و هذا نوع آخر من الانطباق أدق من الأول، و کانطباقها و انطباق آیات المذنبین علی أهل المراقبة و الذکر و الحضور فی تقصیرهم و مساهلتهم فی ذکر اللّه تعالی، و هذا نوع آخر أدق ممّا تقدمه، و کانطباقها علیهم فی قصورهم الذاتی عن أداء حق الربوبیة، و هذا نوع آخر أدق من الجمیع. و من هنا یظهر أولا: أن للقرآن مراتب من المعانی المرادة بحسب مراتب أهله و مقاماتهم، و قد صور الباحثون عن مقامات الإیمان و الولایة من معانیه ما هو أدق مما ذکرناه. و ثانیا: أن الظهر و البطن أمران نسبیان، فکل ظهر بطن بالنسبة إلی ظهره و بالعکس کما یظهر من الروایة التالیة: و فی تفسیر العیاشی عن جابر قال: سألت أبا جعفر علیه السّلام عن شیء من تفسیر

القرآن فأجابنی، ثم سألته ثانیـة فأجابنی بجواب آخر، فقلت: جعلت فداک کنت أجبت فی المسألة بجواب غیر هذا قبل الیوم! فقال: یا جابر إن للقرآن بطنا و للبطن بطن، و ظهرا و للظهر ظهر، یا جابر و لیس شـیء أبعد من عقول الرجال من تفسیر القرآن، إن الآیة تکون أولها فی شـیء و أوسطها فی شـیء و آخرها فی شـیء و هو کلام متصل ینصرف علی وجوه. و فیه أیضا عنه علیه السّلام فی حدیث قال: و لو أن الآیة إذا نزلت فی قوم ثم مات أولئک القوم ماتت الآیة لما بقی من القرآن شیء و لکن القرآن یجری أوله علی آخره ما دامت السموات و الأرض و لکل قوم آیة یتلونها هم منها من خیر أو شر. و فی المعانی عن حمران بن أعین قال: سألت أبا جعفر علیه السّلام عن ظهر (________________________________ ۱) التوبة- ۱۲۰.

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۰ القرآن و بطنه فقال: ظهره الذین نزل فیهم القرآن، و بطنه الذین عملوا بأعمالهم، یجری فیهم ما نزل فی أولئک. و فی تفسیر الصافی عن علی علیه السّلام: ما من آیة إلّا و لها أربعة معان: ظاهر و باطن و حد و مطلع، فالظاهر التلاوة، و الباطن الفهم، و الحد هو أحکام الحلال و الحرام، و المطلع هو مراد اللّه من العبد بها. أقول: المراد بالتلاوة ظاهر مدلول اللفظ بدلیل أنه علیه السّلام عده من المعانی، فالمراد بالفهم فی تفسیره الباطن ما هو فی باطن الظاهر من المعنی و المراد بقوله: هو أحکام الحلال و الحرام ظاهر المعارف المتلقاة من القرآن فی أوائل المراتب أو أواسطها فی مقابل المطلع الذی هو المرتبة العلیا، أو الحد و المطلع نسبیان کما أن الظاهر و الباطن نسبیان کما عرفت فیما تقدم فکل مرتبة علیا هی مطلع بالنسبة إلی السفلی. و المطلع إما بضم المیم و تشدید الطاء و فتح اللام اسم مکان من الاطلاع، أو بفتح المیم و اللام و سکون الطاء اسم مکان من الطلوع، و هو مراد اللّه من العبد بها کما ذکره علیه السّلام. و قد وردت هذه الأمور الأربعة فی النبوی المعروف هکذا: إن القرآن أنزل علی سبعة أحرف، لکل آیة منها ظهر و بطن و لکل حد مطلع. و فی روایة: و لکل حد و مطلع. و معنی قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: و لکل حد مطلع علی ما فی إحدی الروایتین: أن لکل واحد من الظهر و البطن الذی هو حد مطلع یشرف علیه، هذا هو الظاهر و یمکن أن یرجع إلیه ما فی الروایة الأخری: و لکل حد و مطلع بأن یکون المعنی: و لکل منهما حد هو نفسه و مطلع و هو ما ینتهی إلیه الحد فیشرف علی التأویل لکن هذا لا یلائم ظاهرا ما فی روایة علی علیه السّلام: ما من آیة إلّا و لها أربعة معان «إلخ» إلّا أن یراد أن لها أربعة اعتبارات من المعنی و إن کان ربما انطبق بعضها علی بعض. و علی هذا فالمتحصل من معانی الأمور الأربعة: أن الظهر هو المعنی الظاهر البادی من الآیة، و الباطن هو الذی تحت الظاهر سواء کان واحدا أو کثیرا، قریبا منه أو بعیدا بینهما واسطة، و الحد هو نفس المعنی سواء کان الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۱ ظهرا أو بطنا و المطلع هو المعنی الذی طلع منه الحد و هو بطنه متصلا به فافهم. و فی الحدیث المروی من طرق الفریقین عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أنزل القرآن علی سبعة أحرف. أقول: و الحدیث و إن کان مرویا باختلاف ما فی لفظه، لکن معناها مروی مستفیضا و الروایات متقاربة معنی، روتها العامة و الخاصة. و قد اختلف فی معنی الحدیث اختلافا شدیدا ربما أنهی إلی أربعین قولا، و الذی یهون الخطب أن فی نفس الأخبار تفسیرا لهذه السبعة أحرف، و علیه التعویل. ففی بعض الأخبار: نزل القرآن علی سبعة أحرف أمر و زجر و ترغیب و ترهیب و جدل و قصص و مثل، و فی بعضها: زجر و أمر و حلال و حرام و محکم و متشابه و أمثال. و عن علی علیه السّلام أن اللّه أنزل القرآن علی سبعة أقسام، کل منها کاف شاف، و هی أمر و زجر و ترغیب و ترهیب و جدل و مثل و قصص. فالمتعین حمل السبعة أحرف علی أقسام الخطاب و أنواع البیان و هی سبعة علی وحدتها فی الدعوة إلی اللّه و إلی صراطه المستقیم، و یمکن أن یستفاد من هذه الروایة حصر أصول المعارف الإلهیة فی الأمثال فإن بقیة السبعة لا تلائمها إلّا بنوع من العنایة علی ما لا یخفی «۱». (________________________________ ۱) راجع المبحث فی المیزان المجلد

۳ ص ۳۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۲

التفسیر حقیقته و أقسامه

التفسير حقيقته و أقسامه فى الصافى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. أقول: و هذا المعنى رواه الفريقان، و فى معناه أحاديث أخر رووها عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمة أهل البيت عليهم السّلام. و فى منية المريد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. أقول: و رواه أبو داود فى سننه. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من قال فى القرآن بغير علم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. أقول: و رواه أبو داود و الترمذى و النسائى. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أكثر ما أخاف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. و فى تفسير العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر و إن أخطأ فهو أبعد من السماء. و فيه عن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن الرضا عليه السّلام قال: الرأى فى كتاب اللّه كفر. أقول: و فى معناها روايات أخر مروية فى العيون و الخصال و تفسير العياشى و غيرها. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۳ قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من فسر القرآن برأيه، الرأى هو الاعتقاد عن اجتهاد و ربما أطلق على القول عن الهوى و الاستحسان و كيف كان لما ورد قوله: برأيه مع الإضافة إلى الضمير علم منه أن ليس المراد به النهى عن الاجتهاد المطلق فى تفسير القرآن حتى يكون بالملازمة أمرا بالاتباع و الاقتصار بما ورد من الروايات فى تفسير الآيات عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام على ما يراه أهل الحديث، على أنه ينافى الآيات الكثيرة الدالة على كون القرآن عربيا مبينا، و الآمرة بالتدبر فيه، و كذا ينافى الروايات الكثيرة الآمرة بالرجوع إلى القرآن و عرض الأخبار عليه. بل الإضافة فى قوله: برأيه تفيد معنى الاختصاص و الانفراد و الاستقلال بأن يستقل المفسر فى تفسير القرآن بما عنده من الأسباب فى فهم الكلام العربى، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس فإن قطعة من الكلام من أى متكلم إذا ورد علينا لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة فى كشف المراد الكلامى و نحكم بذلك: أنه أراد كذا كما نجرى عليه فى الأقارير و الشهادات و غيرهما، كل ذلك لكون بياننا مبنيا على ما نعلمه من اللغة و نعهده من مصاديق الكلمات حقيقة و مجازا. و البيان القرآنى غير جار هذا المجرى على ما تقدم بيانه فى الأبحاث السابقة بل هو كلام موصول بعضه ببعض فى عين أنه مفصول ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض كما قاله على عليه السّلام فلا يكفى ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة فى العلوم المربوطة فى انكشاف المعنى المراد منها دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها و يجتهد فى التدبر فيها كما يظهر من قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱». و قد مرّ بيانه فى الكلام على الإعجاز و غيره. فالتفسير بالرأى المنهى عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف، إنما و بعبارة أخرى إنما نهى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تفهم كلامه على نحو ما

(۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى

القرآن الكريم، ص: ۱۲۴ يتفهم به كلام غيره و إن كان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع، و الدليل على ذلك قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الرواية الأخرى: من تكلم فى القرآن برأيه فأصابه فقد أخطأ، فإن الحكم بالخطإ مع فرض الإصابة ليس إلّا لكون الخطأ فى الطريق و كذا قوله عليه السّلام فى حديث العياشى: إن أصاب لم يؤجر. و يؤيده ما كان عليه الأمر فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن القرآن لم يكن مؤلفا بعد و لم يكن منه إلّا سور أو آيات متفرقة فى أيدى الناس فكان فى تفسير كل قطعة منه خطر الوقوع فى خلاف المراد. و المحصل: أن المنهى عنه إنما هو الاستقلال فى تفسير القرآن و اعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، و لازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، و هذا الغير لا محالة إما هو الكتاب أو السنّة، و كونه هو السنّة ينافى القرآن و نفس السنّة الآمرة بالرجوع إليه و عرض الأخبار عليه، فلا يبقى للرجوع إليه و الاستمداد منه فى تفسير القرآن إلّا نفس القرآن. و من هنا يظهر حال ما فسروا به حديث التفسير بالرأى فقد تشتتوا فى معناه على أقوال: أحدها: أن المراد به التفسير من غير حصول العلوم التى يجوز معها التفسير و هى خمسة عشر علما على ما أنهاه السيوطى فى الإتقان: اللغة، و النحو، و التصريف و الاشتقاق، و المعانى، و البيان، و البديع، و القراءة، و أصول الدين، و أصول الفقه، و أسباب النزول و كذا القصص، و الناسخ و

المنسوخ، و الفقه، و الأحاديث المبينة لتفسير المجملات و المبهمات، و علم الموهبة، و يعنى بالأخير ما أشار إليه الحديث النبوى: من عمل بما علم ورثه اللّه علم ما لم يعلم. الثانى: أن المراد به تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلّا اللّه. الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا و التفسير تبعا فيرد إليه بأى طريق أمكن و إن كان ضعيفا. الرابع: التفسير بأن مراد اللّه تعالى كذا على القطع من غير دليل. الإعجاز و التحدى فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۵ الخامس: التفسير بالاستحسان و الهوى: و هذه الوجوه الخمسة نقلها ابن النقيب على ما ذكره السيوطى فى الإتقان، و هنا وجوه أخر نتبعها بها. السادس: أن المراد به هو القول فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة و التابعين، ففيه تعرض لسخط اللّه تعالى. السابع: القول فى القرآن بما يعلم أن الحق غيره، نقلهما ابن الأنبارى. الثامن: أن المراد به القول فى القرآن بغير علم و تثبت، سواء علم أن الحق خلافه أم لا. التاسع: هو الأخذ بظاهر القرآن بناء على أنه لا ظهور له بل يتبع فى مورد الآية النص الوارد عن المعصوم، و ليس ذلك تفسيرا للآية بل اتباعا للنص، و يكون التفسير على هذا من الشئون الموقوفة على المعصوم. العاشر: أنه الأخذ بظاهر القرآن بناء على أن له ظهورا لا نفهمه بل المتبع فى تفسير الآية هو النص عن المعصوم. فهذه وجوه عشرة، و ربما أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، و كيف كان فهى وجوه خالية عن الدليل، على أن بعضها ظاهر البطلان أو يظهر بطلانه بما تقدم فى المباحث السابقة، فلا نطيل بالتكرار. و بالجملة فالمتحصل من الروايات و الآيات التى تؤيدها كقوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآية، و قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ «۱»، و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ «۲» الآية، و قوله تعالى: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ «۳»، و قوله تعالى: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ «۴»، إلى غير ذلك أن النهى فى الروايات إنما هو متوجه إلى الطريق و هو أن يسلك فى (_______________ ۱)

الحجر- ۹۱. (۲) حم السجدة- ۴۰. (۳) النساء- ۴۶. (۴) الإسراء- ۳۶. الإعجاز و التحدى فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۶ تفسير كلامه تعالى الطريق المسلوك فى تفسير كلام غيره من المخلوقين. و ليس اختلاف كلامه تعالى مع كلام غيره فى نحو استعمال الألفاظ و سرد الجمل و إعمال الصناعات اللفظية فإنما هو كلام عربى روعى فيه جميع ما يراعى فى كلام عربى و قد قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ «۱»، و قال تعالى: وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۲»، و قال تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۳». و إنما الاختلاف من جهة المراد و المصداق الذى ينطبق عليه مفهوم الكلام. توضيح ذلك: إنا من جهة تعلق وجودنا بالطبيعة الجسمانية و قطوننا المعجل فى الدنيا المادية ألفنا من كل معنى مصداقه المادى، و اعتدنا بالأجسام و الجسمانيات فإذا سمعنا كلام واحد من الناس الذين هم أمثالنا يحكى عن حال أمر من الأمور و فهمنا منه معناه حملناه على ما هو المعهود عندنا من المصداق و النظام الحاكم فيه لعلمنا بأنه لا يعنى إلّا ذلك لكونه مثلنا لا يشعر إلّا بذلك، و عند ذلك يعود النظام الحاكم فى المصداق يحكم فى المفهوم فربما خصص به العام أو عمم به الخاص أو تصرف فى المفهوم بأى تصرف آخر و هو الذى نسميه بتصرف القرائن العقلية غير اللفظية. مثال ذلك أنا إذا سمعنا عزيزا من أعزتنا ذا سؤدد و ثروة يقول: و إن من شىء إلّا عندنا خزائنه، و تعقلنا مفهوم الكلام و معانى مفرداته حكمنا فى مرحلة التطبيق على المصداق: أن له أبنية محصورة حصينة تسع شيئا كثيرا من المظروفات فإن الخزانة هكذا تتخذ إذا اتخذت، و أن له فيها مقدارا وافرا من الذهب و الفضة و الورق و الأثاث و الزينة و السلاح، فإن هذه الأمور هى التى يمكن أن تخزن عندنا و تحفظ حفظا، و أما الأرض و السماء و البر و البحر و الكواكب و الإنسان فهى و إن كانت أشياء لكنها لا تخزن و لا تتراكم، و لذلك نحكم بأن المراد من الشىء بعض من أفراده غير (_______________ ۱) إبراهيم- ۴. (۲) النحل- ۱۰۳. (۳)

الزخرف- ۳. الإعجاز و التحدى فی القرآن الکریم، ص: ۱۲۷ المحصورة. و كذا من الخزائن قليل من كثير فقد عاد النظام الموجود فى المصداق و هو أن كثيرا من الأشياء لا يخزن، و أن ما يختزن منها إنما يختزن فى بناء حصين مأمون عن الغيلة و الغارة أوجب تقييدا عجيبا فى إطلاق مفهوم الشىء و الخزائن. ثم إذا سمعنا اللّه تعالى ينزل على رسوله قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ «۱»،

فإن لم ترق أذهاننا عن مستواها الساذج الأول فسرنا كلامه بعين ما فسرنا به كلام الواحد من الناس مع أنه لا دليل لنا على ذلك البتة فهو تفسير بما نراه من غير علم. و إن رقت أذهاننا عن ذلك قليلا، و أذعنا بأنه تعالى لا يخزن المال و خاصة إذا سمعناه تعالى يقول فى ذيل الآية: وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «۲»، حكمنا بأن المراد بالشىء الرزق من الخبز و الماء و أن المراد بنزوله نزول المطر لأنا لا نشعر بشىء ينزل من السماء غير المطر فاختزان كل شىء عند اللّه ثم نزوله بالقدر كناية عن اختزان المطر و نزوله لتهيئة الموارد الغذائية. و هذا أيضا تفسير بما نراه من غير علم إذ لا مستند له إلّا أنّا لا نعلم شيئا ينزل من السماء غير المطر، و الذى بأيدينا هاهنا عدم العلم دون العلم بالعدم. و إن تعالينا عن هذ المستوى أيضا و اجتنبنا ما فيه من القول فى القرآن بغير علم و أبقينا الكلام على إطلاقه التام، و حكمنا أن قوله وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ يبين أمر الخلقة غير أنا لما كنا لا نشك فى أن ما نجده من الأشياء المتجددة بالخلقة كالإنسان و الحيوان و النبات و غيرها لا تنزل من السماء، و إنما تحدث حدوثا فى الأرض حكمنا بأن قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ، كناية عن مطاوعة الأشياء فى وجودها لإرادة اللّه تعالى، و أن الإرادة بمنزلة مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقة و إنما يخرج منه و ينزل من عنده تعالى ما يتعلق به مشيئته تعالى، و هذا أيضا كما ترى تفسير

(١) الحجر- ٢١. (٢) الجاثية- ۵.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١٢٨ للآية بما نراه من غير علم، إذ لا مستند لنا فيه سوى أنا نجد الأشياء غير نازلة من عند اللّه بالمعنى الذى نعهده من النزول، و لا علم لنا بغيره. و إذا تأملت ما وصفه اللّه تعالى فى كتابه من أسماء ذاته و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و القيامة و ما يتعلق بها، و حكم أحكامه و ملاكاتها، و تأملت ما نرومه فى تفسيرها من إعمال القرائن العقلية وجدت أن ذلك كله من قبيل التفسير بالرأى من غير علم و تحريف لكلمة عن مواضعها. و قد تقدّم فى الفصل الخامس من البحث فى المحكم و المتشابه أن البيانات القرآنية بالنسبة إلى المعارف الإلهية كالأمثال أو هى أمثال بالنسبة إلى ممثلاتها، و قد فرقت فى الآيات المتفرقة، و بينت ببيانات مختلفة ليتبين ببعض الآيات ما يمكن أن يختفى معناه فى بعض، و لذلك كان بعضها شاهدا على البعض، و الآية مفسرة للآية، و لو لا ذلك لاختل أمر المعارف الإلهية فى حقائقها، و لم يمكن التخلص فى تفسير الآية من القول بغير علم على ما تقدم بيانه و من هنا يظهر: أن التفسير بالرأى كما بيناه لا يخلو عن القول بغير علم كما يشير الحديث النبوى السابق: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. و من هنا يظهر أيضا: أن ذلك يؤدى إلى ظهور التنافى بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوى الموجود فى مضامينها فيؤدى إلى وقوع الآية فى غير موقعها، و وضع الكلمة فى غير موضعها، و يلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياته بصرفها عن ظاهرها كما يتأول المجبّرة آيات الاختيار، و المفوّضة آيات القدر، و غالب المذاهب فى الإسلام لا يخلو عن التأول فى الآيات القرآنية و هى الآيات التى لا يوافق ظاهرها مذهبهم فيتشبثون فى ذلك بذيل التأويل استنادا إلى القرينة العقلية، و هو قولهم: إن الظاهر الفلانى قد ثبت خلافه عند العقل فيجب صرف الكلام عنه. و بالجملة يؤدى ذلك إلى اختلاط الآيات بعضها ببعض ببطلان ترتيبها، و دفع مقاصد بعضها ببعض، و يبطل بذلك المرادان جميعا إذ لا اختلاف فى القرآن، فظهور الاختلاف بين الآيات- بعضها مع بعض- ليس إلّا لاختلال الأمر و اختلاط المراد فيهما معا. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١٢٩ و هذا هو الذى ورد التعبير عنه فى الروايات بضرب بعض القرآن ببعض كما فى الروايات التالية: فى الكافى و تفسير العياشى عن الصادق عن أبيه عليه السّلام قال: ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر. و فى المعانى و المحاسن مسندا و فى تفسير العياشى عن الصادق عليه السّلام ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر. قال الصدوق سألت ابن الوليد عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن تجيب الرجل فى تفسير آية بتفسير آية أخرى. أقول: ما أجاب به لا يخلو عن إبهام، فإن أراد به الخلط المذكور و ما هو المعمول عند الباحثين فى مناظراتهم من معارضة الآية بالآية و تأويل البعض بالتمسك بالبعض فحق، و إن أراد به تفسير الآية بالآية و الاستشهاد بالبعض للبعض فخطأ، و الروايتان التاليتان تدفعانه. و فى تفسير النعمانى بإسناده إلى إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام يقول: إن اللّه تبارك و تعالى بعث محمدا فختم به الأنبياء فلا نبى بعده، و أنزل عليه

كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده، أحلّ فيه حلالا و حرم حراما فحلاله حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم و خبر من قبلكم و بعدكم، و جعله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علما باقيا فى أوصيائه، فتركهم الناس و هم الشهداء على أهل كل زمان، و عدلوا عنهم ثم قتلوهم، و اتبعوا غيرهم ثم أخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر و طلب علومهم، قال اللّه سبحانه: وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ «۱» و ذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، و احتجوا بالمنسوخ و هم يظنون أنه الناسخ، و احتجوا بالمتشابه و هم يرون أنه المحكم، و احتجوا بالخاص و هم يقدرون أنه العام، و احتجوا بأول الآية و تركوا السبب فى تأويلها، و لم ينظروا إلى ما يفتح

(__________ ۱) المائدة- ۱۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۰

الكلام و إلى ما يختمه، و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا و أضلّوا. و اعلموا رحمكم اللّه: أنه من لم يعرف من كتاب اللّه عزّ و جل الناسخ من المنسوخ و الخاص من العام، و المحكم من المتشابه، و الرخص من العزائم، و المكى و المدنى و أسباب التنزيل، و المبهم من القرآن فى ألفاظه المنقطعة و المؤلفة، و ما فيه من علم القضاء و القدر، و التقديم و التأخير، و المبين و العميق، و الظاهر و الباطن و الابتداء و الانتهاء، و السؤال و الجواب، و القطع و الوصل و المستثنى منه و الجار فيه، الصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، و المؤكد منه و المفصل و عزائمه و رخصه، و مواضع فرائضه و أحكامه، و معنى حلاله و حرامه الذى هلك فيه الملحدون، و الموصول من الألفاظ، و المحمول على ما قبله و على ما بعده فليس بعالم بالقرآن و لا هو من أهله. و متى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على اللّه الكذب و رسوله و مأواه جهنم و بئس المصير. و فى نهج البلاغة و الاحتجاج قال عليه السّلام: ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله ثم تجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا و إلههم واحد، و نبيهم واحد، و كتابهم واحد، فأمرهم اللّه سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل اللّه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى؟ أم أنزل اللّه دينا تاما فقصر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تبليغه و أدائه؟ و اللّه سبحانه يقول: ما فرطنا فى الكتاب من شىء و فيه تبيان كل شىء، و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا، و أنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً، و إن القرآن ظاهره أنيق، و باطنه عميق لا تحصى عجائبه، و لا تنقضى غرائبه، و لا تكشف الظلمات إلّا به. أقول: و الرواية كما ترى ناصة على أن كل نظر دينى يجب أن ينتهى إلى القرآن، و قوله: فيه تبيان، نقل للآية بالمعنى. و فى الدر المنثور: أخرج ابن سعد و ابن الضريس فى فضائله و ابن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۱ مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج على قوم يتراجعون فى القرآن و هو مغضب فقال: بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، و ضرب الكتاب بعضه ببعض. قال: و إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا و لكن نزل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم فاعملوا به، و ما تشابه عليكم فآمنوا به. و فيه أيضا: أخرج أحمد من وجه آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوما يتدارءون فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض، و إنما نزل كتاب اللّه يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا، و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه. أقول: و الروايات كما ترى يعد ضرب القرآن بعضه ببعض مقابلا لتصديق بعض القرآن بعضا، و هو الخلط بين الآيات من حيث مقامات معانيها، و الإخلال بترتيب مقاصدها كأخذ المحكم متشابها و المتشابه محكما و نحو ذلك. فالتكلم فى القرآن بالرأى، و القول فى القرآن بغير علم كما هو موضوع الروايات المنقولة سابقا، و ضرب القرآن بعضه ببعضه كما هو مضمون الروايات المنقولة آنفا يحوم الجميع حول معنى واحد و هو الاستمداد فى تفسير القرآن بغيره. فإن قلت: لا ريب أن القرآن إنما نزل ليعقله الناس و يفهموه كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ «۱»، و قال تعالى: هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ «۲»، إلى غير ذلك من الآيات، و لا ريب أن مبينه هو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ

إِلَيْهِمْ «۳»، و قد بينه للصحابة، ثم أخذ عنهم التابعون فما نقلوه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلينا فهو بيان نبوى لا يجوز التجافى و الإغماض عنه بنص القرآن، و ما تكلموا فيه من غير إسناده

(____١) الزمر- ۴۱. (۲) آل عمران- ۱۳۸.

(۳) النحل- ۴۴. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۲ إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو و إن لم يجر مجرى النبويات فى حجيتها لكن القلب إليه أسكن فإن ما ذكروه فى تفسير الآيات إما مسموع من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو شيء هداهم إليه الذوق المكتسب من بيانه و تعليمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذا ما ذكره تلامذتهم من التابعين و من يتلوهم، و كيف يخفى عليهم معانى القرآن مع تعرقهم فى العربية، و سعيهم فى تلقيها من مصدر الرسالة و اجتهادهم البالغ فى فقه الدين على ما يقصه التاريخ من مساعى رجال الدين فى صدر الإسلام. و من هنا يظهر: أن العدول عن طريقتهم و سنتهم، و الخروج من جماعتهم، و تفسير آية من الآيات بما لا يوجد بين أقوالهم و آرائهم بدعة، و السكوت عما سكتوا عنه واجب. و فى ما نقل عنهم كفاية لمن أراد فهم كتاب اللّه تعالى، فإنه يبلغ زهاء ألوف من الروايات، و قد ذكر السيوطى أنه أنهاه إلى سبعة عشر ألف رواية عن النبى و عن الصحابة التابعين. قلت: قد مرّ فيما تقدم أن الآيات التى تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقل القرآن و تأمله و التدبر فيه و خاصة قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر و البحث، و يرتفع به ما يتراءى من الاختلاف بين الآيات، و الآية فى مقام التحدّى، و لا معنى لإرجاع فهم معانى الآيات- و المقام هذا المقام- إلى فهم الصحابة و تلامذتهم من التابعين حتى إلى بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن ما بيّنه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام فهو مما يؤدى إليه اللفظ و لو بعد التدبر و التأمل و البحث، و إما أن يكون معنى لا يوافق الظاهر و لا أن الكلام يؤدى إليه فهو مما لا يلائم التحدّى و لا تتم به الحجة و هو ظاهر. نعم تفاصيل الأحكام مما لا سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أرجعها القرآن إليه فى قوله تعالى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ

(____١) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى

القرآن الكريم، ص: ۱۳۳ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱»، و ما فى معناه من الآيات، و كذا تفاصيل القصص و المعاد مثلا. و من هنا يظهر أن شأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المقام هو التعليم فحسب و التعليم إنما هو هداية المعلم الخبير ذهن المتعلم و إرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به و الحصول عليه لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم، فإنما التعليم تسهيل للطريق و تقريب للمقصد، لا إيجاد للطريق و خلق لمقصده و المعلم فى تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلمية و نضدها على نحو يستسهله ذهن المتعلم و يأنس به فلا يقع فى جهد الترتيب و كدّ التنظيم فيتلف العمر و موهبة القوة أو يشرف على الغلط فى المعرفة. و هذا هو الذى يدل عليه أمثال قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ الآية «۲»، و قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ «۳» فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما يعلم الناس و يبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه و يبيّنه اللّه سبحانه بكلامه، و يمكن للناس الحصول عليه بالآخرة لأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبين لهم معانى لا طريق إلى فهمها من كلام اللّه تعالى فإن ذلك لا ينطبق البتة على مثل قوله تعالى: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «۴»، و قوله تعالى: وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۵». على أن الأخبار المتواترة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المتضمنة لوصيته بالتمسك بالقرآن و الأخذ به و عرض الروايات المنقولة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على كتاب اللّه لا يستقيم معناها إلّا مع كون جميع ما نقل عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مما يمكن استفادته من الكتاب، و لو توقف ذلك على بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان من الدور الباطل و هو ظاهر. على أن ما ورد به النقل من كلام الصحابة مع قطع النظر عن طرقه لا يخلو عن الاختلاف فيما بين الصحابة أنفسهم بل عن الاختلاف فيما نقل عن الواحد منهم على ما لا يخفى على المتتبع المتأمل فى أخبارهم، و القول (____١) الحشر- ۷. (۲)

النحل- ۴۴. (۳) الجمعة- ۲. (۴) حم السجدة- ۳. (۵) النحل- ۱۰۳. الإعجاز و التحدی فی القرآن الكريم، ص: ۱۳۴ بأن الواجب حينئذ أن يختاروا أحد الأقوال المختلفة المنقولة عنهم فی الآية، و يجتنب عن خرق إجماعهم و الخروج عن جماعتهم مردود بأنهم أنفسهم لم يسلكوا هذا الطريق، و لم يستلزموا هذا المنهج و لم يبالوا بالخلاف فيما بينهم فكيف يجب على غيرهم أن يقفوا على ما قالوا به و لم يختصوا بحجية قولهم على غيرهم، و لا بتحريم الخلاف على غيرهم دونهم. على أن هذا الطريق و هو الاقتصار على ما نقل من مفسرى صدر الإسلام من الصحابة و التابعين فی معانی الآيات القرآنية يوجب توقف العلم فی سيره و بطلان البحث فی أثره كما هو مشهود فی ما بأيدينا من كلمات الأوائل و الكتب المؤلفة فی التفسير فی القرون الأولى من الإسلام، و لم ينقل منهم فی التفسير إلّا معان ساذجة بسيطة خالية عن تعمق البحث و تدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «۱» من دقائق المعارف فی القرآن؟ و أما استبعاد أن يختفی عليهم معانی القرآن مع ما هم عليه من الفهم و الجد و الاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم فی معانی كثير من الآيات و التناقض الواقع فی الكلمات المنقولة عنهم إذ لا يتصور اختلاف و لا تناقض إلّا مع فرض خفاء الحق و اختلاط طريقه بغيره. فالحق أن الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، و أن البيان الإلهی و الذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادی إلى نفسه، أی أنه لا يحتاج فی تبيين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذی عرفه اللّه تعالى بأنه هدى و أنه نور و أنه تبيان لكل شیء مفتقرا إلى هاد غيره و مستنيرا بنور غيره و مبينا بأمر غيره؟ فإن قلت: قد صح عن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال فی آخر خطبة خطبها: إنی تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر و الثقل الأصغر فأما الأكبر فكتاب ربی، و أما الأصغر فعترتی أهل بيتی فاحفظونی فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما رواه الفريقان بطرق متواترة عن جم غفير من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه،

(____ ۱) النحل- ۸۹. الإعجاز و التحدی فی القرآن الكريم، ص: ۱۳۵ أنهى علماء الحديث عدتهم إلى خمس و ثلاثين صحابيا، و فی بعض الطرق: لن يفترقا حتى يردا على الحوض، و الحديث دال على حجية قول أهل البيت عليهم السّلام فی القرآن و وجوب اتباع ما ورد عنهم فی تفسيره و الاقتصار على ذلك و إلّا لزم التفرقة بينهم و بينه. قلت: ما ذكرناه فی معنى اتباع بيان النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آنفا جار هاهنا بعينه و الحديث غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن و قصر الحجية على ظاهر بيان أهل البيت عليهم السّلام. كيف و هو عليه السّلام يقول: لن يفترقا، فيجعل الحجية لهما معا فللقرآن الدلالة على معانيه و الكشف عن المعارف الإلهية، و لأهل البيت الدلالة على الطريق و هداية الناس إلى أغراضه و مقاصده. على أن نظير ما ورد عن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی دعوة الناس إلى الأخذ بالقرآن و التدبر فيه و عرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت عليهم السّلام. على أن جما غفيرا من الروايات التفسيرية الواردة عنهم عليهم السّلام مشتملة على الاستدلال بآية على آية، و الاستشهاد بمعنى على معنى، و لا يستقيم ذلك إلّا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب و يستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له. على أن هاهنا روايات عنهم عليهم السّلام تدل على ذلك بالمطابقة كما رواه فی المحاسن بإسناده عن أبی لبيد البحرانی عن أبی جعفر عليه السّلام فی حديث قال: فمن زعم أن كتاب اللّه مبهم فقد هلك و أهلك، و يقرب منه ما فيه و فی الاحتجاج عنه عليه السّلام قال: إذا حدثتكم بشیء فاسألونی عنه من كتاب اللّه، الحديث. و بما مرّ من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الدالة على إمكان نيل المعارف القرآنية منه و عدم احتجابها من العقول و بين ما ظاهره خلافه كما فی تفسير العياشی عن جابر قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: إن للقرآن بطنا و للبطن ظهرا، ثم قال: يا جابر و ليس شیء أبعد من عقول الرجال منه إن الآية لتنزل أولها فی شیء و أوسطها فی شیء و آخرها فی شیء، و هو كلام متصل ينصرف على وجوه، و هذا المعنى وارد فی عدة روايات، و قد رويت الجملة أعنی قوله: و ليس شیء أبعد ... إلخ، فی بعضها عن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الإعجاز و التحدی فی القرآن الكريم، ص: ۱۳۶ و قد روی عن علی عليه السّلام: أن القرآن حمال ذو وجوه، الحديث، فالذی ندب إليه تفسيره من طريقه، و الذی نهی عنه تفسيره من غير طريقه، و قد تبيّن أن المتعين فی التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه و

تفسیر الآیة بالآیة و ذلک بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبی و أهل بیته علیهم السّلام و تهیئة ذوق مکتسب منها ثم الورود و اللّه الهادی «۱ (________________________________» ... ۱) انظر جمیع ما تقدم فی هذا الموضوع فی المجلد الثالث من المیزان ص ۸۷. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۳۷

عصمة القرآن عن التحریف

اشارة

عصمة القرآن عن التحریف فی فصول:

الفصل الأول القرآن ینفی وقوع التحریف فیه

الفصل الأول القرآن ینفی وقوع التحریف فیه من ضروریات التأریخ أن النبی العربی محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جاء قبل أربعة عشر قرنا- تقریبا- و ادعی النبوة و انتهض للدعوة و آمن به أمة من العرب و غیرهم، و أنه جاء بکتاب یسمّیه القرآن و ینسبه إلی ربه متضمن لجمل المعارف و کلیات الشریعة التی کان یدعو إلیها، و کان یتحدی به و یعده آیة لنبوته، و أن القرآن الموجود الیوم بأیدینا هو القرآن الذی جاء به و قرأه علی الناس المعاصرین له فی الجملة بمعنی أنه لم یضع من أصله بأن یفقد کله ثم یوضع کتاب آخر یشابهه فی نظمه أو لا یشابهه و ینسب إلیه و یشتهر بین الناس بأنه القرآن النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. فهذه أمور لا یرتاب فی شیء منها إلّا مصاب فی فهمه و لا احتمل بعض ذلک أحد من الباحثین فی مسألة التحریف من المخالفین و المؤالفین. و إنما احتمل بعض من قال به من المخالف أو المؤالف زیادة شیء یسیر کالجملة أو الآیة أو النقص أو التغییر فی جملة أو آیة فی کلماتها أو إعرابها، و أما جلّ الکتاب الإلهی فهو علی ما هو فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یضع و لم یفقد. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۳۸ ثم إنا نجد القرآن یتحدّی بأوصاف ترجع إلی عامة آیاته و نجد ما بأیدینا من القرآن أعنی ما بین الدفتین واجدا لما وصف به من أوصاف تحدّی بها من غیر أن یتغیر فی شیء منها أو یفوته و یفقد. فنجده یتحدّی بالبلاغة و الفصاحة و نجد ما بأیدینا مشتملا علی ذلک النظم العجیب البدیع لا یعدله و لا یشابهه شیء من کلام البلغاء و الفصحاء المحفوظ منهم و المروی عنهم من شعر أو نثر أو خطبة أو رسالة أو محاورة أو غیر ذلک، و هذا النظم موجود فی جمیع الآیات سواء کتابا متشابها مثانی تقشعر منه الجلود و القلوب. و نجده یتحدّی بقوله: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۱» بعدم وجود اختلاف فیه و نجد ما بأیدینا من القرآن یفی بذلک أحسن الوفاء و أوفاه فما من إبهام أو خلل یتراءی فی آیة إلّا و یرفعه آیة أخری، و ما من خلاف أو مناقضة یتوهم بادئ الرأی من شطر إلّا و هناک ما یدفعه و یفسّره. و نجده یتحدّی بغیر ذلک مما لا یختص فهمه بأهل اللغة العربیة کما فی قوله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً «۲»، و قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ «۳» ثم نجد ما بأیدینا من القرآن یستوفی البیان فی صریح الحق الذی لا مریة فیه، و یهدی إلی آخر ما یهتدی إلیه العقل من أصول المعارف الحقیقیة و کلیات الشرائع الفطریة و تفاصیل الفضائل الخلقیة من غیر أن نعثر فیها علی شیء من النقیصة و الخلل أو نحصل علی شیء من التناقض و الزلل بل نجد جمیع المعارف علی سعتها و کثرتها حیّة بحیاة واحدة مدبّرة بروح واحد هو مبدأ جمیع المعارف القرآنیة و الأصل الذی إلیه ینتهی الجمیع و یرجع و هو التوحید فإلیه ینتهی الجمیع بالتحلیل و هو یعود إلی کل منها بالترکیب. و نجده یغوص فی أخبار الماضین من الأنبیاء و أممهم و نجد ما عندنا (________________________________ ۱) النساء- ۸۲. (۲) الإسراء- ۸۸. (۳) الطارق- ۱۳ و ۱۴. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۳۹ من کلام اللّه یورد قصصهم و یفصل القول فیها علی ما

يليق بطهارة الدين و يناسب نزاهة ساحة النبوة و خلوصها للعبودية و الطاعة، و كلما طبقنا قصة من القصص القرآنية على ما يماثلها مما ورد فى العهدين انجلى ذلك أحسن الانجلاء. و نجده يورد آيات فى الملاحم و يخبر عن الحوادث الآتية فى آيات كثيرة بالتصريح أو بالتلويح ثم نجدها فيما هو بأيدينا من القرآن على تلك الشريطة صادقة مصدقة. و نجده يصف نفسه بأوصاف زاكية جميلة كما يصف نفسه بأنه نور و أنه هاد يهدى إلى صراط مستقيم و إلى الملة التى هى أقوم و نجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئا من ذلك و لا يهمل من أمر الهداية و الدلالة و لا دقيقة. و من أجمع الأوصاف التى يذكرها القرآن لنفسه أنه ذكر للّه فإنه يذكر به تعالى بما أنه آية دالة عليه حيّة خالدة، و بما أنه يصفه بأسمائه الحسنى و صفاته العليا، و يصف سنّته فى الصنع و الإيجاد، و يصف ملائكته و كتبه و رسله، و يصف شرائعه و أحكامه و يصف ما ينتهى إليه أمر الخلقة و هو المعاد و رجوع الكل إليه سبحانه، و تفاصيل ما يؤول إليه أمر الناس من السعادة و الشقاء، و الجنة و النار. ففى جميع ذلك ذكر اللّه، و هو الذى يرومه القرآن إطلاق القول بأنه ذكر و نجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئا من معنى الذكر. و لكون الذكر من أجمع الصفات فى الدلالة على شئون القرآن عبّر عنه بالذكر فى الآيات التى أخبر فيها عن حفظه القرآن عن البطلان و التغيير و التحريف كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱»، فذكر تعالى أن القرآن من حيث هو ذكر لا يغلبه باطل و لا يدخل فيه حالا و لا فى مستقبل الزمان لا بإبطال و لا

(۱) حم السجدة- ۴۰ إلى ۴۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۰

بنسخ و لا بتغيير أو تحريف يوجب زوال ذكريته عنه. و كقوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۱» فقد أطلق الذكر و أطلق الحفظ فالقرآن محفوظ بحفظ اللّه عن كل زيادة و نقيصة و تغيير فى اللفظ أو فى الترتيب يزيله عن الذكرية و يبطل كونه ذكرا للّه سبحانه بوجه. و من سخيف القول إرجاع ضمير «له» إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه مدفوع بالسياق و إنما كان المشركون يستهزءون بالنبى لأجل القرآن الذى كان يدّعى نزوله عليه كما يشير إليه بقوله سابقا: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «۲». فقد تبين مما فصّلناه أن القرآن الذى أنزله اللّه على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وصفه بأنه ذكر محفوظ على ما أنزل مصون بصيانة إلهية عن الزيادة و النقيصة و التغيير كما وعد اللّه نبيه فيه. و خلاصة الحجة أن القرآن أنزله اللّه على نبيه و وصفه فى آيات كثيرة بأوصاف خاصة لو كان تغير فى شىء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير فى لفظ أو ترتيب مؤثر فقد آثار تلك الصفة قطعا لكنا نجد القرآن الذى بأيدينا واجدا لآثار تلك الصفات المعدودة على أتم ما يمكن و أحسن ما يكون فلم يقع فيه تحريف يسلبه شيئا من صفاته فالذى بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعينه فلو فرض سقوط شىء منه أو تغير فى إعراب أو حرف أو ترتيب وجب أن يكون فى أمر لا يؤثر فى شىء من أوصافه كالإعجاز و ارتفاع الاختلاف و الهداية و النورية و الذكرية و الهيمنة على سائر الكتب السماوية إلى غير ذلك، و ذلك كآية مكررة ساقطة أو اختلاف فى نقطة أو إعراب و نحوها.

(۱) الحجر- ۹. (۲) الحجر- ۶.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۱

الفصل الثانى الروايات تنفى وقوع التحريف

الفصل الثانى الروايات تنفى وقوع التحريف و يدلّ على عدم وقوع التحريف الأخبار الكثيرة المروية عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من طرق الفريقين الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن و فى حل عقد المشكلات. و كذا حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريقين: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا» الحديث فلا معنى للأمر

بالتمسک بکتاب محرّف و نفی الضلال أبدا ممن تمسک به. و کذا الأخبار الکثیرة الواردة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمة أهل البیت علیهم السّلام الآمرة بعرض الأخبار علی الکتاب، و ما ذکره بعضهم أن ذلک فی الأخبار الفقهیة و من الجائز أن نلتزم بعدم وقوع التحریف فی خصوص آیات الأحکام و لا ینفع ذلک سائر الآیات مدفوع بأن أخبار العرض مطلقة فتخصیصها بذلک تخصیص من غیر مخصص. علی أن لسان أخبار العرض کالصریح أو هو صریح فی أن الأمر بالعرض إنما هو لتمییز الصدق من الکذب و الحق من الباطل و من المعلوم أن الدس و الوضع غیر مقصورین فی أخبار الفقه بل الدواعی إلی الدس و الوضع فی المعارف الاعتقادیة و قصص الأنبیاء و الأمم الماضین و أوصاف المبدأ و المعاد أکثر و أوفر و یؤید ذلک ما بأیدینا من الإسرائیلیات و ما یحذو حذوها مما أمر الجعل فیها أوضح و أبین. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۲ و کذا الأخبار التی تتضمن تمسّک أئمة أهل البیت علیهم السّلام بمختلف الآیات القرآنیة فی کل باب علی ما یوافق القرآن الموجود عندنا حتی فی الموارد التی فیها آحاد من الروایات بالتحریف، و هذا أحسن شاهد علی أن المراد فی کثیر من روایات التحریف من قولهم علیهم السّلام: کذا نزل هو التفسیر بحسب التنزیل فی مقابل البطن و التأویل. و کذا الروایات الواردة عن أمیر المؤمنین علیه السّلام و سائر الأئمة من ذریّته علیهم السّلام فی أن ما بأیدی الناس قرآن نازل من عند اللّه تعالی و إن کان غیر ما ألفه علی علیه السّلام من المصحف و لم یشرکوه علیه السّلام فی التألیف فی زمن أبی بکر و لا فی زمن عثمان و من هذا الباب قولهم علیه السّلام لشیعتهم: «اقرءوا کما قرأ الناس». و مقتضی هذه الروایات أن لو کان القرآن الدائر بین الناس مخالفا لما ألفه علی علیه السّلام فی شیء فإنما یخالفه فی ترتیب السور أو فی ترتیب بعض الآیات التی لا یؤثر اختلال ترتیبها فی مدلولها شیئا و لا فی الأوصاف التی وصف اللّه سبحانه بها القرآن النازل من عنده ما یختل به آثارها. فمجموع هذه الروایات علی اختلاف أصنافها یدلّ دلالة قاطعة علی أن الذی بأیدینا من القرآن هو القرآن النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من غیر أن یفقد شیئا من أوصافه الکریمة و آثارها و برکاتها. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۳

الفصل الثالث نقد القول بالتحریف

اشارة

الفصل الثالث نقد القول بالتحریف ذهب جماعة من محدثی الشیعة و الحشویة و جماعة من محدثی أهل السنة إلی وقوع التحریف بمعنی النقص و التغییر فی اللفظ أو الترتیب دون الزیادة فلم یذهب إلیها أحد من المسلمین کما قیل.

و احتجوا علی نفی الزیادة بالإجماع و علی وقوع النقص و التغییر بوجوه

اشارة

و احتجوا علی نفی الزیادة بالإجماع و علی وقوع النقص و التغییر بوجوه کثیرة:

الوجه الأول: الأخبار

الوجه الأول: الأخبار الکثیرة المرویة من طرق الشیعة و أهل السنّة الدالّة علی سقوط بعض السور و الآیات و کذا الجمل و أجزاء الجمل و الکلمات و الحروف فی الجمع الأول الذی ألف فیه القرآن فی زمن أبی بکر، و کذا فی الجمع الثانی الذی کان فی زمن عثمان و کذا التغییر و هذه روایات کثیرة روتها الشیعة فی جوامعها المعتبرة و غیرها، و قد ادّعی بعضهم أنّها تبلغ ألفی حدیث، و

روتها أهل السنّة فی صحاحهم کصحیحی البخاری و مسلم و سنن أبی داود و النسائی و أحمد و سائر الجوامع و کتب التفاسیر و غیرها و قد ذکر الآلوسی فی تفسیره أنها فوق حدّ الإحصاء. و هذا غیر ما یخالف فیه مصحف عبد اللّه بن مسعود المصحف المعروف مما ینیف علی ستین موضعا، و ما یخالف فیه مصحف أبی بن کعب المصحف العثمانی و هو فی بضع و ثلاثین موضعا، و ما تختلف فیه المصاحف العثمانیة التی اکتتبها و أرسلها إلی الآفاق و هی خمسة أو سبعة أرسلها إلی مکة و إلی الشام و إلی البصرة و إلی الکوفة و إلی الیمن و إلی الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۴ البحرین و حبس واحدا بالمدینة و الاختلاف الذی فیما بینها یبلغ خمسة و أربعین حرفا، و قیل: بضع و خمسین حرفا. و غیر الاختلاف فی الترتیب بین المصاحف العثمانیة و الجمع الأول فی زمن أبی بکر فقد کانت سورة الأنفال فی التألیف الأول فی المثانی و سورة براءة فی المئین و هما فی الجمع الثانی موضوعتان فی الطوال علی ما ستجیء روایته. و غیر الاختلاف فی ترتیب السور الموجود بین مصحفی عبد اللّه بن مسعود و أبی بن کعب علی ما وردت به الروایة و بین المصاحف العثمانیة، و غیر الاختلافات القرائیة الشاذة التی رویت عن الصحابة و التابعین فربما بلغ عدد المجموع الألف أو زاد علیه.

الوجه الثانی: أن العقل یحکم

الوجه الثانی: أن العقل یحکم بأنه إذا کان القرآن متفرقا متشتتا منتشرا عند الناس و تصدّی لجمعه غیر المعصوم یمتنع عادة أن یکون جمعه کاملا موافقا للواقع.

الوجه الثالث: ما روته العامة و الخاصة أن علیا علیه السّلام

الوجه الثالث: ما روته العامة و الخاصة أن علیا علیه السّلام اعتزل الناس بعد رحلة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یرتد إلّا للصلاة حتی جمع القرآن ثم حمله إلی الناس و أعلمهم أنه القرآن الذی أنزله اللّه علی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد جمعه فردوه و استغنوا عنه بما جمعه لهم زید بن ثابت و لو لم یکن بعض ما فیه مخالفا لبعض ما فی مصحف زید لم یکن لحمله إلیهم و إعلامهم و دعوتهم إلیه وجه، و قد کان علیه السّلام أعلم الناس بکتاب اللّه بعد نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد أرجع الناس إلیه فی حدیث الثقلین المتواتر و قال فی الحدیث المتفق علیه: «علیّ مع الحق و الحق مع علیّ».

الوجه الرابع: ما ورد من الروایات أنه یقع فی هذه الأمة ما وقع فی بنی إسرائیل

الوجه الرابع: ما ورد من الروایات أنه یقع فی هذه الأمة ما وقع فی بنی إسرائیل حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة، و قد حرّفت بنو إسرائیل کتاب نبیّهم علی ما یصرح به القرآن الکریم و الروایات المأثورة، فلا بد أن یقع نظیره فی هذه الأمة فیحرفوا کتاب ربهم و هو القرآن الکریم. ففی صحیح البخاری عن أبی سعید الخدری أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: لتتبعنّ سنن من کان قبلکم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتی لو دخلوا جحر الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۵ ضبّ لتبعتموه، قلنا: یا رسول اللّه بآبائنا و أمهاتنا الیهود و النصاری؟ قال فمن؟ و الروایة مستفیضة مرویة فی جوامع الحدیث عن عدة من الصحابة کأبی سعید الخدری- کما مرّ- و أبی هریرة و عبد اللّه بن عمر، و ابن عباس و حذیفة و عبد اللّه بن مسعود و سهل بن سعد و عمر بن عوف و عمرو بن العاص و شداد بن أوس و المستورد بن شداد فی ألفاظ متقاربة. و هی مرویة مستفیضة من طرق الشیعة عن عدة من أئمة أهل البیت علیهم السّلام عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی تفسیر القمی عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لترکبنّ سبیل من کان قبلکم حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة لا تخطئون طریقهم و لا تخطئ شبر بشبر و ذراع بذراع و باع بباع حتی أن لو کان من قبلکم دخل جحر

ضبّ لدخلتموه قالوا: الیهود و النصاری تعنی یا رسول اللّه؟ قال: فمن أعنی؟ لتنقضنّ عری الإسـلام عروة عروة فیکون أول ما تنقضون من دینکم الأمانة و آخره الصـلاة. و الجواب عن استدلالهم بإجماع الأمة علی نفی تحریف القرآن بالزیادة بأنها حجة مدخولة لکونها دوریة. بیان ذلک: أن الإجماع لیس فی نفسه حجة عقلیة یقینیة بل هو عند القائلین باعتباره حجة شـرعیة لو أفاد شیئا من الاعتقاد فإنما یفیـد الظن سواء فی ذلک محصـله و منقوله علی خلاف ما یزعمه کثیر منهم أن الإجماع المحصّل مفید للقطع و ذلک أن الذی یفیده الإجماع من الاعتقاد لا یزیـد علی مجموع الاعتقادات التی تفیـدها آحاد الأقوال و الواحد من الأقوال المتوافقة لا یفید إلّا الظن بإصابة الواقع، و انضـمام القول الثـانی الـذی یوافقه إلیه إنمـا یفیـد قوة الظن دون القطع لأـن القطع اعتقـاد خـاص بسیط مغـایر للظن و لیس بالمرکّب من عـدة ظنون. و هکـذا کلما انضم قول إلی قول تراکمت الأقوال المتوافقـة و زاد الظن قوة و تراکمت الظنون و اقتربت من القطع من غیر أن تنقلب إلیه کما تقدم، هذا فی المحصّل من الإجماع و هو الذی نحصـله بتتبع جمیع الأقوال و الحصول علی کل قول قول، و أما المنقول منه الـذی ینقله الواحد و الاثنان الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۶ من أهل العلم و البحث فالأمر فیه أوضـح فهو کآحاد الروایات لا یفید إلّا الظن إن أفاد شـیئا من الاعتقاد. فالإجماع حجة ظنیة شـرعیة دلیل اعتبارها عند أهل السـنّة مثلا قـوله صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم «لاـ تجتمع أمـتی علی خطـاء أو ضـلال» و عنـد الشـیعة دخول قول المعصوم فی أقوال المجمعین أو کشف أقوالهم عن قوله بوجه. فحجیة الإجماع بالجملة متوقفة علی صـحة النبوة و ذلک ظاهر، و صـحة النبوة الیوم متوقفة علی سـلامة القرآن من التحریف المسـتوجب لزوال صـفات القرآن الکریمـة عنه کالهدایـة و فصل القول و خاصـة الإعجاز فإنه لا دلیل حیا خالدا علی خصوص نبوة النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم غیر القرآن الکریم بکونه آیـة معجزة، و مع احتمال التحریف بزیادة أو نقیصة أو أی تغییر آخر لا وثوق بشـیء من آیاته و محتویاته أنه کلام اللّه محضا و بـذلک تسـقط الحجـة و تفسد الآیة، و مع سـقوط کتاب اللّه عن الحجیة یسقط الإجماع عن الحجیة. و لا ینفع فی المقام ما قدمناه فی أول الکلام أن وجود القرآن المنزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فیما بأیدینا من القرآن فی الجملة من ضـروریات التاریخ. و ذلک لأن مجرد اشتمال ما بأیدینا منه علی القرآن الواقعی لا یدفع احتمال زیادة أو نقیصة أو أی تغییر آخر فی کل آیة أو جملة أرید التمسک بها لإثبات مطلوب.

و الجواب عن الوجه الأول

و الجواب عن الوجه الأول الذی أقیم لوقوع التحریف بالنقص و التغییر و هو الذی تمسک فیه بالأخبار: أما أولا فبأن التمسک بالأخبار بما أنها حجة شرعیة یشتمل من الدور علی ما یشتمل علیه التمسک بالإجماع بنظیر البیان الذی تقدم آنفا. فلا یبقی للمستدل بها إلّا أن یتمسک بها بما أنها أسناد و مصادر تاریخیة و لیس فیها حدیث متواتر و لا محفوف بقرائن قطعیة تضطرّ العقل إلی قبوله بل هی آحاد متفرقة متشـتتة مختلفة منها صـحاح و منها ضـعاف فی أسـنادها و منها قاصـرة فی دلالتها فما أشذّ منها ما هو صـحیح فی سـنده تام فی دلالته. الإعجاز و التحـدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۴۷ و هـذا النوع علی شذوذه و ندرته غیر مأمون فیه الوضع و الدسّ فإن انسـراب الإسـرائیلیات و مـا یلحق بها من الموضوعات و المـدسوسات بین روایاتنا لا سبیل إلی إنکاره و لا حجیـة فی خبر لا یؤمن فیه الـدسّ و الوضع. و مع الغض عن ذلک فهی تذکر من الآیات و السور ما لا یشبه النظم القرآنی بوجه، و مع الغضّ عن جمیع ذلک فإنها مخالفة للکتاب مردودة. أما ما ذکرنا أن أکثرها ضعیفة الأسناد فیعلم ذلک بالرجوع إلی أسانیدها فهی مراسیل أو مقطوعة الأسناد أو ضعیفتها، و السـالم منهـا من هـذه العلل أقلّ قلیل. و أما ما ذکرنا أن منها ما هو قاصـر فی دلالتها فإن کثیرا مما وقع فیها من الآیات المحکیـة من قبیل التفسـیر و ذکر معنی الآیات لا من حکایـة متن الآیـة المحرّفـة و ذلک کما فی روضـة الکافی عن أبی الحسن الأول فی قول اللّه: أُولئِـکَ الَّذِینَ یَعْلَمُ اللَّهُ مـا فِی قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُـلْ لَهُمْ فِی أَنْفُسِـهِمْ قَوْلًا بَلِیغاً «۱». و مـا فی الکـافی عن الصادق علیه السّـلام فی قوله تعالی: وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا «۲» قـال: «إن تلووا الأـمر و تعرضوا عما أمرتـم به فإن اللّه کان بما تعملون خبیرا» إلی غیر ذلـک من روایـات التفسـیر المعـدودة من أخبـار التحریف. و یلحق بهـذا البـاب ما لا یحصـی من الروایات المشـیرة إلی سبب النزول

المعدودة من أخبار التحريف كالروايات التى تذكر هذه الآية هكذا: «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك فى على» و الآية نازلة فى حقه عليه السّلام، و ما روى أن وفد بنى تميم كانوا إذا قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقفوا على باب الحجرة و نادوه أن اخرج إلينا فذكرت الآية فيها هكذا: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات بنو تميم أكثرهم لا يعقلون» فظن أن فى الآية سقطا. و يلحق بهذا الباب أيضا ما لا يحصى من الأخبار الواردة فى جرى القرآن

(۱) النساء- ۶۳. (۲) النساء- ۱۳۵.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۸ و انطباقه كما ورد فى قوله: «و سيعلم الذين ظلموا آل محمد حقهم» و ما ورد من قوله: «و من يطع اللّه و رسوله فى ولاية على و الأئمة من بعده فقد فاز فوزا عظيما» و هى كثيرة جدا. و يلحق بها أيضا ما أتبع فيه القراءة بشيء من الذكر و الدعاء فتوهّم أنه من سقط القرآن كما فى الكافى عن عبد العزيز بن المهتدى قال: سألت الرضا عليه السّلام عن التوحيد فقال: كل من قرأ قل هو اللّه أحد و آمن بها فقد عرف التوحيد، قال: [قلت كيف نقرؤها؟ قال: كما يقرؤها الناس و زاد فيه كذلك اللّه ربى كذلك اللّه ربى. و من قبيل قصور الدلالة ما نجد فى كثير من الآيات المعدودة من المحرّفة اختلاف الروايات فى لفظ الآية كالتى وردت فى قوله تعالى: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم أذلة» ففى بعضها أن الآية هكذا: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم ضعفاء» و فى بعضها: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم قليل». و هذا الاختلاف ربما كان قرينة على أن المراد هو التفسير بالمعنى كما فى الآية المذكورة، و يؤيده ما ورد فى بعضها من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا يجوز وصفهم بأنهم أذلة و فيهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و ربما لم يكن إلّا من التعارض و التنافى بين الروايات القاضى بسقوطها كآية الرجم على ما ورد فى روايات الخاصة و العامة و هى فى بعضها: «إذا زنى الشيخ و الشيخة فارجموهما البتة فإنهما قضيا الشهوة»، و فى بعضها: «الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإنهما قضيا الشهوة»، و فى بعضها: «بما قضيا اللذة» و فى بعضها آخرها: «نكالا من اللّه و اللّه عليم حكيم» و فى بعضها: «نكالا من اللّه و اللّه عزيز حكيم». و كآية الكرسى على التنزيل التى وردت فيها روايات فهى فى بعضها هكذا: اللّه لا إله إلّا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة و لا نوم له ما فى السموات و ما فى الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى عالم الغيب و الشهادة فلا يظهر على غيبه أحدا من ذا الذى يشفع عنده- إلى قوله- و هو العلى العظيم و الحمد للّه رب العالمين. و فى بعضها- إلى قوله- هم فيها خالدون و الحمد للّه رب العالمين، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۹ و فى بعضها هكذا «له ما فى السموات و ما فى الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم» إلخ، و فى بعضها: «عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم بديع السماوات و الأرض ذو الجلال و الإكرام رب العرش العظيم» و فى بعضها: «عالم الغيب و الشهادة العزيز الحكيم». و ما ذكره بعض المحدثين أن اختلاف هذه الروايات فى الآيات المنقولة غير ضائر لاتفاقها فى أصل التحريف. مردود بأن ذلك لا يصلح ضعف الدلالة و دفع بعضها لبعض. و أما ما ذكرنا من شيوع الدس و الوضع فى الروايات فلا يرتاب فيه من راجع الروايات المنقولة فى الصنع و الإيجاد و قصص الأنبياء و الأمم و الأخبار الواردة فى تفاسير الآيات و الحوادث الواقعة فى صدر الإسلام و أعظم ما يهم أمره لأعداء الدين و لا يألون جهدا فى إطفاء نوره و إخماد ناره و إعفاء أثره هو القرآن الكريم الذى هو الكهف المنيع و الركن الشديد الذى يأوى إليه و يتحصن به المعارف الدينية، و السند الحى الخالد لمنشور النبوة و موادّ الدعوة لعلمهم بأنه لو بطلت حجة القرآن لفسد بذلك أمر النبوة و اختل نظام الدين و لم يستقر من بنيانه حجر على حجر. و العجب من هؤلاء المحتجين بروايات منسوبة إلى الصحابة أو إلى أئمة أهل البيت عليهم السّلام على تحريف كتاب اللّه سبحانه و إبطال حجيته، و ببطلان حجة القرآن تذهب النبوة سدى و المعارف الدينية لغى لا أثر لها، و ما ذا يغنى قولنا: إن رجلا فى تاريخ كذا ادعى النبوة و أتى بالقرآن معجزة أما هو فقد مات و أما قرآنه فقد حرّف، و لم يبق بأيدينا مما يؤيد أمره إلّا أن المؤمنين به أجمعوا على صدقه فى دعواه و أن القرآن الذى جاء به كان معجزا دالا على نبوته، و الإجماع حجة لأن النبى المذكور اعتبر حجيته أو لأنه يكشف مثلا عن قول أئمة أهل بيته؟ و بالجملة احتمال الدس- و هو قريب جدا مؤيد بالشواهد و القرائن- يدفع حجية هذه الروايات و يفسد اعتبارها

فلا یبقی معه لها لا حجیة شرعیة و لا حجیة عقلائیة حتی ما کان منها صحیح الإسناد فإن صحة السند و عدالة رجال الطریق إنما یدفع تعمدهم الکذب دون دس غیرهم فی أصولهم الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۰ و جوامعهم ما لم یرووه. و أما ما ذکرناه أن روایات التحریف تذکر آیات و سورا لا یشبه نظمها النظم القرآنی بوجه فهو ظاهر لمن راجعها فإنه یعثر فیها بشیء کثیر من ذلک کسورتی الخلع و الحفد اللتین رویتا بعدة من طرق أهل السنّة فسورة الخلع هی: «بسم اللّه الرحمن الرحیم اللهم إنا نستعینک و نستغفرک، و نثنی علیک و لا نکفرک، و نخلع و نترک من یفجرک» و سورة الحفد هی: «بسم اللّه الرحمن الرحیم اللهم إیاک نعبد و لک نصلی و نسجد، و إلیک نسعی و نحفد، نرجو رحمتک و نخشی نقمتک إن عذابک بالکافرین ملحق». و کذا ما أورده بعض الروایات من سورة الولایة و غیرها أقاویل مختلفة رام واضعها أن یقلد النظم القرآنی فخرج الکلام عن الأسلوب العربی المألوف و لم یبلغ النظم الإلهی المعجز فعاد یستبشعه الطبع و ینکره الذوق و لک أن تراجعها حتی تشاهد صدق ما ادعیناه، و تقضی أن أکثر المعتنین بهذه السور و الآیات المختلفة المجعولة إنما دعاهم إلی ذلک التعبّد الشدید بالروایات و الإهمال فی عرضها علی الکتاب و لو لا ذلک لکفتهم للحکم بأنها لیست بکلام إلهی نظرة. و أما ما ذکرنا أن روایات التحریف علی تقدیر صحة إسنادها مخالفة للکتاب فلیس المراد به مجرد مخالفتها لظاهر قوله تعالی: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ و قوله: وَ إِنَّهُ لَکِتابٌ عَزِیزٌ. لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ الآیتان، حتی تکون مخالفة ظنیة لکون ظهور الألفاظ من الأدلة الظنیة بل المراد مخالفتها للدلالة القطعیة من مجموع القرآن الذی بأیدینا حسب ما قررناه فی الحجة الأولی التی أقمناها لنفی التحریف. کیف لا؟ و القرآن الذی بأیدینا متشابه الأجزاء فی نظمه البدیع المعجز کاف فی رفع الاختلافات المتراءاة بین آیاته و أبعاضه غیر ناقص و لا قاصر فی إعطاء معارفه الحقیقیة و علومه الإلهیة الکلیة و الجزئیة المرتبطة بعضها ببعض المترتبة فروعها علی أصولها المنعطفة أطرافها علی أوساطها إلی غیر ذلک من خواصّ النظم القرآنی الذی وصفه اللّه بها.

و الجواب عن الوجه الثانی

و الجواب عن الوجه الثانی أن دعوی الامتناع العادی مجازفة بیّنة نعم یجوّز العقل عدم موافقة التألیف فی نفسه للواقع إلّا أن تقوم قرائن تدل علی الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۱ ذلک و هی قائمة کما قدمنا، و أما أن یحکم العقل بوجوب مخالفتها للواقع کما هو مقتضی الامتناع العادی فلا.

و الجواب عن الوجه الثالث

و الجواب عن الوجه الثالث أن جمعه علیه السّلام القرآن و حمله إلیهم و عرضه علیهم لا یدل علی مخالفة ما جمعه لما جمعوه فی شیء من الحقائق الدینیة الأصلیة أو الفرعیة إلّا أن یکون فی شیء من ترتیب السور أو الآیات من السور التی نزلت نجوما بحیث لا یرجع إلی مخالفة فی بعض الحقائق الدینیة. و لو کان کذلک لعارضهم بالاحتجاج و دافع فیه و لم یقنع بمجرد إعراضهم عما جمعه و استغنائهم عنه کما روی عنه علیه السّلام فی موارد شتی، و لم ینقل عنه علیه السّلام فیما روی من احتجاجاته أنه قرأ فی أمر ولایته و لا غیرها آیة أو سورة تدل علی ذلک و جبّههم علی إسقاطها أو تحریفها. و هل کان ذلک حفظا لوحدة المسلمین و تحرزا عن شق العصا فإنما کان یتصور ذلک بعد استقرار الأمر و اجتماع الناس علی ما جمع لهم لا حین الجمع و قبل أن یقع فی الأیدی و یسیر فی البلاد. و لیت شعری هل یسعنا أن ندعی أن ذلک الجم الغفیر من الآیات التی یرون سقوطها و ربما ادعوا أنها تبلغ الألوف کانت جمیعا فی الولایة أو کانت خفیة مستورة عن عامة المسلمین لا یعرفها إلّا النزر القلیل منهم مع توفر دواعیهم و کثرة رغباتهم علی أخذ القرآن کلما نزل و تعلمه، و بلوغ اجتهاد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تبلیغه و إرساله إلی الآفاق و تعلیمه و بیانه، و قد نص

علی ذلک القرآن قال تعالی: وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ «۱»، و قال: لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ «۲» فکیف ضاع؟ و أین ذهب؟ ما یشیر إلیه بعض المراسیل أنه سقط فی آیة من أول سورة النساء بین قوله وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِی الْیَتامی إلی قوله: فَانْکِحُوا ما طابَ لَکُمْ مِنَ النِّساءِ أکثر من ثلث القرآن أی أکثر من ألفی آیة، و ما ورد من طرق أهل السنّة أن سورة براءة کانت مبسملة (______________________________ ۱) الجمعة- ۲. (۲) النحل- ۴۴.

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۲ تعدل سورة البقرة، و أن الأحزاب کانت أعظم من البقرة و قد سقطت منه مائتا آیة إلی غیر ذلک!. أو أن هذه الآیات و قد دلت هذه الروایات علی بلوغها فی الکثرة- کانت منسوخة التلاوة کما ذکره جمع من المفسرین من أهل السنّة حفظا لما ورد فی بعض روایاتهم أن من القرآن ما أنساه اللّه و نسخ تلاوته. فما معنی إنساء الآیة و نسخ تلاوتها؟ أ کان ذلک لنسخ العمل بها فما هی هذه الآیات المنسوخة الواقعة فی القرآن کآیة الصدقة و آیة نکاح الزانیة و الزانی و آیة العدة و غیرها؟ و هم مع ذلک یقسمون منسوخ التلاوة إلی منسوخ التلاوة و العمل معا و منسوخ التلاوة دون العمل کآیة الرجم. أم کان ذلک لکونها غیر واجدة لبعض صفات کلام اللّه حتی أبطلها اللّه بإمحاء ذکرها و إذهاب أثرها فلم یکن من الکتاب العزیز الذی لا- یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه، و لا منزها من الاختلاف، و لا قولا فصلا و لا هادیا إلی الحق و إلی طریق مستقیم، و لا معجزا یتحدی به و لا، و لا، فما معنی الآیات الکثیرة التی تصف القرآن بأنه فی لوح محفوظ، و أنه کتاب عزیز لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه، و أنه قول فصل، و أنه هدی، و أنه نور، و أنه فرقان بین الحق و الباطل، و أنه آیة معجزة، و أنه، و أنه؟ فهل یسعنا أن نقول: إن هذه الآیات علی کثرتها و إباء سیاقها عن التقیید مقیدة بالبعض فبعض الکتاب فقط و هو غیر المنسی و منسوخ التلاوة لا یأتیه الباطل و قول فصل و هدی و نور و فرقان و معجزة خالدة؟ و هل جعل الکلام منسوخ التلاوة و نسیا منسیا غیر إبطاله و إماتته؟ و هل صیرورة القول النافع بحیث لا ینفع للأبد و لا یصلح شأنا مما فسد غیر إلغائه و طرحه و إهماله؟ و کیف یجامع ذلک کون القرآن ذکرا؟ فالحق أن روایات التحریف المرویة من طرق الفریقین و کذا الروایات المرویة فی نسخ تلاوة بعض الآیات القرآنیة مخالفة للکتاب مخالفة قطعیة.

و الجواب عن الوجه الرابع:

و الجواب عن الوجه الرابع: أن أصل الأخبار القاضیة بمماثلة الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۳ الحوادث الواقعة فی هذه الأمة لما وقع فی بنی إسرائیل مما لا ریب فیه، و هی متظافرة أو متواترة، لکن هذه الروایات لا تدل علی المماثلة من جمیع الجهات، و هو ظاهر بل الضرورة تدفعه. فالمراد بالمماثلة هی المماثلة فی الجملة من حیث النتائج و الآثار، و حینئذ فمن الجائز أن تکون مماثلة هذه الأمة لبنی إسرائیل فی مسألة تحریف الکتاب إنما هی فی حدوث الاختلاف و التفرق بین الأمة بانشعابها إلی مذاهب شتی یکفّر بعضهم بعضا و افتراقها إلی ثلاث و سبعین فرقة کما افترقت النصاری إلی اثنتین و سبعین و الیهود إلی واحدة و سبعین و قد ورد هذا المعنی فی کثیر من هذه الروایات حتی ادعی بعضهم کونها متواترة. و من المعلوم أن الجمیع مستندون فیما اختاروه إلی کتاب اللّه، و لیس ذلک إلا من جهة تحریف الکلم عن مواضعه، و تفسیر القرآن الکریم بالرأی و الاعتماد علی الأخبار الواردة فی تفسیر الآیات من غیر العرض علی الکتاب و تمییز الصحیح منها من السقیم. و بالجملة أصل الروایات الدالة علی المماثلة بین الأمتین لا یدل علی شیء من التحریف الذی یدّعونه نعم وقع فی بعضها ذکر التحریف بالتغییر و الإسقاط، و هذه الطائفة علی ما بها من السقم مخالفة للکتاب کما تقدم «۱ (______________________________». ۱) راجع المیزان المجلد ۱۲ ص ۱۰۲. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۴

جمع القرآن الکریم

اشارهٔ

جمع القرآن الکریم فی تاریخ الیعقوبی: قال عمر بن الخطاب لأبی بکر: یا خلیفهٔ رسول اللّه إن حملهٔ القرآن قد قتل أکثرهم یوم الیمامهٔ فلو جمعت القرآن فإنی أخاف علیه أن یذهب حملته، فقال له أبو بکر: أفعل ما لم یفعله رسول اللّه؟ فلم یزل به عمر حتی جمعه و کتبه فی صحف و کان مفرّقا فی الجرید و غیرها. و أجلس خمسهٔ و عشرین رجلا من قریش و خمسین رجلا من الأنصار فقال: اکتبوا القرآن و اعرضوا علی سعید بن العاص فإنه رجل فصیح. و روی بعضهم أن علی بن أبی طالب علیه السّلام کان جمعه لما قبض رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أتی به یحمله علی جمل فقال: هذا القرآن قد جمعته. قال: و کان قد جزّأه سبعهٔ أجزاء ثم ذکر الأجزاء. و فی تاریخ أبی الفداء: و قتل فی قتال مسیلمهٔ جماعهٔ من القرّاء من المهاجرین و الأنصار، و لما رأی أبو بکر کثرهٔ من قتل أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال و جرید النخل و الجلود، و ترک ذلک المکتوب عند حفصهٔ بنت عمر زوج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، انتهی. و الأصل فیما ذکراه الروایات فقد أخرج البخاری فی صحیحه عن زید ابن ثابت قال: أرسل إلیّ أبو بکر مقتل أهل الیمامهٔ فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بکر إن عمر أتانی فقال: إن القتل قد استحرّ بقراء القرآن و إنی أخشی أن یستحر القتل بالقراء فی المواطن فیذهب کثیر من القرآن، و إنی أری أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: کیف نفعل شیئا لم یفعله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ قال عمر: هذا و اللّه خیر، فلم یزل یراجعنی حتی شرح اللّه صدری لذلک و رأیت الذی رأی عمر. قال زید: قال أبو بکر: إنک شاب عاقل لا نتهمک و قد کنت تکتب الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۵ الوحی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتتبع القرآن فاجمعه. فو اللّه لو کلفونی نقل جبل من الجبال ما کان أثقل علیّ مما أمرنی به من جمع القرآن، قلت: کیف تفعلان شیئا لم یفعله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ قال: هو و اللّه خیر. فلم یزل أبو بکر یراجعنی حتی شرح اللّه صدری للذی شرح له صدر أبی بکر و عمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب و اللخاف و صدور الرجال، و وجدت آخر سورهٔ التوبهٔ مع خزیمهٔ الأنصاری لم أجدها مع غیره: «لقد جاءکم رسول» حتی خاتمهٔ براءهٔ، فکانت الصحف عند أبی بکر حتی توفاه اللّه تعالی ثم عند عمر حیاته ثم عند حفصهٔ بنت عمر. و عن ابن أبی داود من طریق یحیی بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: من کان تلقی من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شیئا من القرآن فلیأت به و کانوا یکتبون ذلک فی الصحف و الألواح و العسب، و کان لا یقبل من أحد شیئا حتی یشهد شهیدان. و عنه أیضا من طریق هشام بن عروهٔ عن أبیه- و فی الطریق انقطاع- أن أبا بکر قال لعمر و لزید: اقعدوا علی باب المسجد فمن جاءکما بشاهدین علی شیء من کتاب اللّه فاکتباه. و فی الإتقان عن ابن أشتهٔ فی المصاحف عن اللیث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بکر و کتبه زید، و کان الناس یأتون زید بن ثابت فکان لا یکتب آیهٔ إلّا بشاهدی عدل، و إن آخر سورهٔ براءهٔ لم یوجد إلّا مع أبی خزیمهٔ بن ثابت فقال: اکتبوها فإن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جعل شهادته بشهادهٔ رجلین فکتب و إن عمر أتی بآیهٔ الرجم فلم یکتبها لأنه کان وحده. و عن ابن أبی داود فی المصاحف من طریق محمد بن إسحاق عن یحیی بن عبّاد بن عبد اللّه بن الزبیر عن أبیه قال: أتانی الحارث بن خزیمهٔ بهاتین الآیتین من آخر سورهٔ براءهٔ فقال: أشهد أنی سمعتهما من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وعیتهما، فقال عمر: و أنا أشهد لقد سمعتهما من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وعیتهما، فقال عمر: و أنا أشهد لقد سمعتها ثم قال: لو کانت ثلاث آیات لجعلتها سورهٔ علی حدهٔ فانظروا آخر سورهٔ من القرآن فألحقوها فی آخرها. و عنه أیضا من طریق أبی العالیهٔ عن أبی بن کعب أنهم جمعوا القرآن الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۶ فلما انتهوا إلی الآیهٔ التی فی سورهٔ براءهٔ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَفْقَهُونَ ظنوا أن هذا آخر ما أنزل فقال أبیّ: إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أقرأنی بعد هذا آیتین لَقَدْ جاءَکُمْ رَسُولٌ إلی آخر السورهٔ. و فی الإتقان عن الدیر عاقولی فی فوائده حدثنا إبراهیم بن یسار حدثنا سفیان بن عیینهٔ عن الزهری عن عبید عن زید بن ثابت قال: قال: قبض النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یکن القرآن جمع فی شیء. و فی مستدرک الحاکم بإسناده عن زید بن ثابت قال: کنا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نؤلف القرآن من الرقاع، الحدیث. أقول: و لعل المراد ضم بعض

الآيات النازلة نجوما إلى بعض السور أو إلحاق بعض السور إلى بعضها مما يتماثل صنفا كالطوال و المئين و المفصلات فقد ورد لها ذكر فى الأحاديث النبوية، و إلّا فتأليف القرآن و جمعه مصحفا واحدا إنما كان بعد ما قبض النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا إشكال، و على مثل هذا ينبغى أن يحمل ما يأتى. فى صحيح النسائى عن ابن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: اقرأه فى شهر. و فى الإتقان عن ابن أبى داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظى قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل و عبادة بن الصامت و أبى بن كعب و أبو الدرداء و أبو أيوب الأنصارى. و فيه عن البيهقى فى المدخل عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل و أبىّ بن كعب و أبو زيد و اختلفوا فى رجلين من ثلاثة: أبى الدرداء و عثمان، و قيل: عثمان و تميم الدارى. و فيه عنه و عن ابن أبى داود عن الشعبى قال: جمع القرآن فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ستة: أبى و زيد و معاذ و أبو الدرداء و سعيد بن عبيد و أبو زيد و مجمع بن حارثة، و قد أخذه إلّا سورتين أو ثلاث. و فيه أيضا عن ابن أشتة فى كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۷ بريدة قال: أول من جمع القرآن فى مصحف سالم مولى أبى حذيفة أقسم لا يرتدى برداء حتى يجمعه فجمعه، الحديث. أقول: أقصى ما تدلّ عليه هذه الروايات مجرّد جمعهم ما نزل من السور و الآيات، و أما العناية بترتيب السور و الآيات كما هو اليوم أو بترتيب آخر فلا. هذا هو الجمع الأول فى عهد أبى بكر. و قد جمع القرآن ثانيا فى عهد عثمان لما اختلفت المصاحف و كثرت القراءات. قال اليعقوبى فى تاريخه: و جمع عثمان القرآن و ألّفه و صيّر الطوال مع الطوال و القصار مع القصار من السور، و كتب فى جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت ثم سلقها بالماء الحار و الخلّ، و قيل: أحرقها فلم يبق مصحف حتى فعل به ذلک خلا مصحف ابن مسعود. و كان ابن مسعود بالكوفة فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد اللّه بن عامر و كتب [إليه عثمان أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالا و هذه الأمة فسادا فدخل المسجد و عثمان يخطب فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان فتكلمت عائشة و قالت قولا كثيرا. و بعث بها إلى الأمصار و بعث بمصحف إلى الكوفة و مصحف إلى البصرة و مصحف إلى المدينة و مصحف إلى مكة و مصحف إلى مصر و مصحف إلى الشام و مصحف إلى البحرين و مصحف إلى اليمن و مصحف إلى الجزيرة. و أمر الناس أن يقرءوا على نسخة واحدة، و كان سبب ذلک أنه بلغه أن الناس يقولون: قرآن آل فلان فأراد أن يكون نسخته واحدة، و قيل: إن ابن مسعود كان كتب بذلک إليه فلما بلغه أنه كان يحرق المصاحف قال: لم أرد هذا، و قيل: كتب إليه بذلک حذيفة بن اليمان، انتهى موضع الحاجة. و فى الإتقان روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان و كان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية و أذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان: أدرک الأمة قبل أن يختلفوا الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۸ اختلاف اليهود و النصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليک، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت و عبد اللّه بن الزبير و سعيد بن العاص و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف. و قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة و أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا و أمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه» فألحقناها فى سورتها فى المصحف. و فيه أخرج ابن أشتة من طريق أيوب عن أبى قلابة قال: حدثنى رجل من بنى عامر يقال له أنس بن مالک قال: اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان و المعلمون فبلغ عثمان بن عفان فقال: عندى تكذبون به و تلحنون فيه فمن نأى عنى كان أشدّ تكذيبا و أكثر لحنا يا أصحاب محمد اجتمعوا و اكتبوا للناس إماما. فاجتمعوا فكانوا إذا اختلفوا و تدارءوا فى آية قالوا: هذه أقرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلانا فيرسل إليه و

هو علی رأس ثلاث من المدینة فیقال له: کیف أقرأک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آیة کذا و کذا؟ فیقول کذا و کذا فیکتبونها و قد ترکوا لذلک مکانا. و فیه عن ابن أبی داود من طریق ابن سیرین عن کثیر بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن یکتب المصاحف جمع له اثنی عشر رجلا من قریش و الأنصار فبعثوا إلی الربعة التی فی بیت عمر فجیء بها و کان عثمان یتعاهدهم فکانوا إذا تدارءوا فی شیء أخروه. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۵۹ قال محمد: فظننت أنما کانوا یؤخرونه لینظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخیرة فیکتبونه علی قوله. و فیه أخرج ابن أبی داود بسند صحیح عن سوید بن غفلة قال: قال علی: لا تقولوا فی عثمان إلّا خیرا فو اللّه ما فعل الذی فعل فی المصاحف إلّا عن ملاء منا قال ما تقولون فی هذه القراءة؟ فقد بلغنی أن بعضهم یقول: إن قراءتی خیر من قراءتک و هذا یکاد یکون کفرا قلنا: فما تری؟. [قال أری أن یجمع الناس علی مصحف واحد فلا یکون فرقة و لا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأیت. و فی الدر المنثور أخرج ابن الضریس عن علباء بن أحمر أن عثمان بن عفان لما أراد أن یکتب المصاحف أرادوا أن یلقوا الواو التی فی براءة وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال أبی: لتلحقنها أو لأضعن سیفی علی عاتقی فألحقوها. و فی الإتقان عن أحمد و أبی داود و الترمذی و النسائی و ابن حبان و الحاکم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملکم علی أن عمدتم إلی الأنفال و هی من المثانی، و إلی براءة و هی من المئین فقربتم بینهما و لم تکتبوا بینهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحیم، و وضعتموهما فی السبع الطوال. فقال عثمان: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تنزل علیه السورة ذات العدد فکان إذا أنزل علیه الشیء دعا بعض من کان یکتب، فیقول: ضعوا هؤلاء الآیات فی السورة التی یذکر فیها کذا و کذا، و کانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدینة و کانت براءة من آخر القرآن نزولا و کانت قصتها شبیهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یبین لنا أنها منها. فمن أجل ذلک قرنت بینهما، و لم أکتب بینهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحیم و وضعتها فی السبع الطوال. أقول: السبع الطوال- علی ما یظهر من هذه الروایة و روی أیضا عن ابن جبیر- هی البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و الأنعام و الأعراف و یونس، و قد کانت موضوعة فی الجمع الأول علی هذا الترتیب ثم غیر الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۰ عثمان هذا الترتیب فأخذ الأنفال و هی من المثانی و براءة و هی من المئین قبل المثانی فوضعهما بین الأعراف و یونس مقدما الأنفال علی براءة.

نتیجة البحث:

نتیجة البحث: الروایات التی مرّت سابقا هی أشهر الروایات الواردة فی باب جمع القرآن و تألیفه بین صحیحة و سقیمة، و هی تدل علی أن الجمع الأول کان جمعا لشتات السور المکتوبة فی العسب و اللخاف و الأکتاف و الجلود و الرقاع و إلحاق الآیات النازلة متفرقة إلی سور تناسبها. و إن الجمع الثانی و هو الجمع العثمانی کان رد المصاحف المنتشرة عن الجمع الأول بعد عروض تعارض النسخ و اختلاف القراءات علیها إلی مصحف واحد مجمع علیه عدا ما کان من قول زید أنه ألحق قوله: مِنَ الْمُؤْمِنِینَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَیْهِ الآیة، فی سورة الأحزاب فی المصحف فقد کانت المصاحف تتلی خمس عشرة سنة و لیست فیها الآیة. و قد روی البخاری عن ابن الزبیر قال: قلت لعثمان وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْواجاً قد نسختها الآیة الأخری فلم تکتبها أو تدعها؟ قال: یا ابن أخی لا أغیر شیئا منه من مکانه. و الذی یعطیه النظر الحر فی هذه الروایات و دلالتها- و هی عمدة ما فی هذا الباب- أنها آحاد غیر متواترة لکنها محفوفة بقرائن قطعیة فقد کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یبلغ الناس ما نزّل إلیه من ربه من غیر أن یکتم منه شیئا، و کان یعلّمهم و یبیّن لهم ما نزّل إلیهم من ربهم علی ما نص علیه القرآن و لم یزل جماعة منهم یعلمون و یتعلمون القرآن تعلم تلاوة و بیان و هم القرّاء الذین قتل جم غفیر منهم فی غزوة الیمامة. و کان الناس علی رغبة شدیدة فی أخذ القرآن و تعاطیه و لم یترک هذا الشأن و لا- ارتفع القرآن من بینهم و لا- یوما أو بعض یوم حتی جمع القرآن فی مصحف واحد ثم أجمع علیه فلم یبتل القرآن بما ابتلیت به التوراة و الإنجیل و کتب سائر الأنبیاء. أضف إلی ذلک روایات لا تحصی کثرة وردت من طرق الشیعة و أهل الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۱ السنّة فی قراءاته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کثیرا من السور القرآنیة فی الفرائض

اليومية و غيرها بمسمع من ملأ الناس، و قد سمى فى هذه الروايات جم غفير من السور القرآنية مكيتها و مدنيتها. أضف إلى ذلك ما تقدم فى رواية عثمان بن أبى العاص فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ «۱» الآية، من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن جبرئيل أتانى بهذه الآية و أمرنى أن أضعها فى موضعها من السورة، و نظير الرواية فى الدلالة ما دل على قراءته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لبعض السور النازلة نجوما كآل عمران و النساء و غيرها فيدل على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يأمر كتاب الوحى بإلحاق بعض الآيات فى موضعها. و أعظم الشواهد القاطعة ما تقدم فى أول هذه الأبحاث أن القرآن الموجود بأيدينا واجد لما وصفه اللّه تعالى من الأوصاف الكريمة. و بالجملة الذى تدل عليه هذه الروايات هى: أولا: أن الموجود فيما بين الدفتين من القرآن هو كلام اللّه تعالى فلم يزد فيه شىء و لم يتغير منه شىء و أما النقص فإنها لا تفى بنفيه نفيا قطعيا كما روى بعدة طرق أن عمر كان يذكر كثيرا آية الرجم و لم تكتب عنه و أما حملهم الرواية و سائر ما ورد فى التحريف- و قد ذكر الآلوسى فى تفسيره أنها فوق حد الإحصاء- على منسوخ التلاوة فقد عرفت فساده و تحققت أن إثبات منسوخ التلاوة أشنع من إثبات أصل التحريف. على أن من كان له مصحف غير ما جمعه زيد أولا بأمر من أبى بكر و ثانيا بأمر من عثمان كعلى عليه السّلام و أبى بن كعب و عبد اللّه بن مسعود لم ينكر شيئا مما حواه المصحف الدائر غير ما نقل عن ابن مسعود أنه لم يكتب فى مصحفه المعوّذتين و كان يقول: إنهما عوذتان نزل بهما جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعوّذ بهما الحسنين عليه السّلام، و قد ردّه سائر الصحابة و تواترت النصوص من أئمة أهل البيت عليه السّلام على أنهما سورتان من القرآن. و بالجملة: الروايات السابقة- كما ترى- آحاد محفوفة بالقرائن

(۱) النحل- ۹۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۲

القطعية نافية للتحريف بالزيادة و التغيير قطعا دون النقص إلّا ظنا، و دعوى بعضهم التواتر من حيث الجهات الثلاث لا- مستند لها. و التعويل فى ذلك على ما قدمناه من الحجة فى أول هذه الأبحاث أن القرآن الذى بأيدينا واجد للصفات الكريمة التى وصف اللّه سبحانه بها القرآن الواقعى الذى أنزله على رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ككونه فصلا و رافعا للاختلاف و ذكرا و هاديا و نورا و مبينا للمعارف الحقيقية و الشرائع الفطرية و آية معجزة إلى غير ذلك من صفاته الكريمة. و من الحرى أن نعوّل على هذا الوجه فإن حجة القرآن على كونه كلام اللّه المنزل على رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى نفسه المتصفة بهاتيك الصفات الكريمة من غير أن يتوقف فى ذلك على أمر آخر وراء نفسه كائنا ما كان فحجته معه أينما تحقق و بيد من كان و من أى طريق وصل. و بعبارة أخرى لا يتوقف القرآن النازل من عند اللّه إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كونه متصفا بصفاته الكريمة على ثبوت استناده إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنقل متواتر أو متظافر- و إن كان واجدا لذلك- بل الأمر بالعكس فاتصافه بصفاته الكريمة هو الحجة على الاستناد فليس كالكتب و الرسائل المنسوبة إلى المصنّفين و الكتاب، و الأقاويل المأثورة عن العلماء و أصحاب الأنظار المتوقفة صحة استنادها إلى نقل قطعى و بلوغ متواتر أو مستفيض مثلا بل نفسه ذاته هى الحجة على ثبوته. و ثانيا: إن ترتيب السور إنما هو من الصحابة فى الجمع الأول و الثانى و من الدليل عليه ما تقدم فى الروايات من وضع عثمان الأنفال و براءة بين الأعراف و يونس و قد كانتا فى الجمع الأول متأخرتين. و من الدليل عليه ما ورد من مغايرة ترتيب مصاحف سائر الصحابة للجمع الأول و الثانى كليهما كما روى أن مصحف على عليه السّلام كان مرتبا على ترتيب النزول فكان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمّل ثم تبّت ثم التكوير و هكذا إلى آخر المكى و المدنى نقله فى الإتقان عن ابن فارس، و فى تاريخ اليعقوبى ترتيب آخر لمصحفه عليه السّلام. و نقل عن ابن أشتة فى المصاحف بإسناده عن أبى جعفر الكوفى ترتيب الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۳ مصحف أبى و هو يغاير المصحف الدائر مغايرة شديدة، و كذا عنه فيه بإسناده عن جرير بن عبد الحميد ترتيب مصحف عبد اللّه بن مسعود آخذا من الطوال ثم المئين ثم المثانى ثم المفصّل و هو أيضا مغاير للمصحف الدائر. و قد ذهب كثير منهم إلى أن ترتيب السور توقيفى و أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى أمر بهذا الترتيب بإشارة من جبريل بأمر من اللّه سبحانه حتى أفرط بعضهم فادّعى ثبوت ذلك بالتواتر و ليت شعرى أين هذا التواتر و قد تقدّمت عمدة روايات الباب و لا أثر فيها من هذا المعنى،

و سیأتی استدلال بعضهم علی ذلک بما ورد من نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلی السماء الدنیا جملة ثم منها علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تدریجا. و ثالثا: إن وقوع بعض الآیات القرآنیة التی نزلت متفرقة موقعها الذی هی فیه الآن لم یخل عن مداخلة من الصحابة بالاجتهاد کما هو ظاهر روایات الآیة الجمع الأول و قد تقدمت. و أما روایة عثمان بن أبی العاص عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أتانی جبریل فأمرنی أن أضع هذه الآیة بهذا الموضع من السورة إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ الآیة، فلا تدل علی أزید من فعله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی بعض الآیات فی الجملة لا بالجملة، و علی تقدیر التسلیم لا دلالة لما بأیدینا من الروایات المتقدمة علی مطابقة ترتیب الصحابة ترتیبه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مجرّد حسن الظن بهم لا یسمح للروایات بدلالة تدلّ بها علی ذلک و إنما یفید أنهم ما کانوا لیعمدوا إلی مخالفة ترتیبه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما علموه لا فیما جهلوه. و فی روایات الجمع الأول المتقدمة أوضح الشواهد علی أنهم ما کانوا علی علم بمواضع جمیع الآیات و لا بنفسها. و یدلّ علی ذلک الروایات المستفیضة التی وردت من طرق الشیعة و أهل السنّة أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین إنما کانوا یعلمون تمام السورة بنزول البسملة کما رواه أبو داود و الحاکم و البیهقی و البزّار من طریق سعید بن جبیر- علی ما فی الإتقان- عن ابن عباس قال: کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یعرف فصل السورة حتی تنزل علیه بسم اللّه الرحمن الرحیم، زاد البزّار: فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت و استقبلت أو ابتدأت سورة أخری. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۴ و أیضا عن الحاکم من وجه آخر عن سعید عن ابن عباس قال: کان المسلمون لا یعلمون انقضاء السورة حتی تنزل بسم اللّه الرحمن الرحیم فإذا نزلت علموا أن السورة قد انقضت، إسناده علی شرط الشیخین. و أیضا عنه من وجه آخر عن سعید عن ابن عباس أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا جاءه جبریل فقرأ بسم اللّه الرحمن الرحیم علم أنها سورة، إسناده صحیح. أقول: و روی ما یقرب من ذلک فی عدة روایات أخری و روی ذلک من طرق الشیعة عن الباقر علیه السّلام. و الروایات- کما تری- صریحة فی دلالتها علی أن الآیات کانت مرتبة عند النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحسب ترتیب النزول فکانت المکیّات فی السورة المکیّة و المدنیات فی سورة مدنیّة اللهم إلّا أن یفرض سورة نزل بعضها بمکة و بعضها بالمدینة و لا یتحقق هذا الفرض إلّا فی سورة واحدة. و لازم ذلک أن یکون ما نشاهده من اختلاف مواضع الآیات مستندا إلی اجتهاد من الصحابة. توضیح ذلک أن هناک ما لا یحصی من روایات أسباب النزول یدل علی کون آیات کثیرة فی السور المدنیة نازلة بمکة و بالعکس و علی کون آیات من القرآن نازلة مثلا فی أواخر عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هی واقعة فی سور نازلة فی أوائل الهجرة، و قد نزلت بین الوقتین سور أخری کثیرة و ذلک کسورة البقرة التی نزلت فی السنة الأولی من الهجرة و فیها آیات الربا و قد وردت الروایات علی أنها من آخر ما نزلت علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی ورد عن عمر أنه قال: مات رسول اللّه و لم یبین لنا آیات الربا، و فیها قوله تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللَّهِ «۱» الآیة. و قد ورد أنها آخر ما نزل من القرآن علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. فهذه الآیات النازلة مفرقة الموضوعة فی سور لا تجانسها فی المکیة و المدنیة موضوعة فی غیر موضعها بحسب ترتیب النزول و لیس إلّا عن اجتهاد من الصحابة. و یؤید ذلک ما فی الإتقان عن ابن حجر: و قد ورد عن علی أنه جمع (______________________________ ۱) البقرة- ۲۸۱. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۵ القرآن علی ترتیب النزول عقب موت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخرجه ابن أبی داود و هو من مسلمات مدالیل روایات الشیعة. هذا ما یدل علیه ظاهر روایات الباب المتقدمة لکن الجمهور أصروا علی أن ترتیب الآیات توقیفی فآیات المصحف الدائر الیوم و هو المصحف العثمانی مرتبة علی ما رتبها علیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإشارة من جبریل، و أوّلوا ظاهر الروایات بأن جمع الصحابة لم یکن جمع ترتیب و إنما کان جمعا لما کانوا یعلمونه و یحفظونه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من السور و آیاتها المرتبة، بین دفتین و فی مکان واحد. و أنت خبیر بأن کیفیة الجمع الأول التی تدلّ علیها الروایات تدفع هذه الدعوی دفعا صریحا. و ربما استدل علیه بما ادّعاه بعضهم من الإجماع علی ذلک فقد نقل السیوطی فی الإتقان عن الزرکشی دعوی الإجماع علیه و عن أبی جعفر بن الزبیر نفی الخلاف فیه بین المسلمین، و هو إجماع منقول لا یعتمد علیه بعد

وجود الخلاف فی أصل التحریف و دلالهٔ ما تقدم من الروایات علی خلافه. و ربما استدل علیه بالتواتر و یوجد ذلک فی کلام کثیر منهم ادعوا تواتر الترتیب الموجود عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو عجیب و قد نقل فی الإتقان بعد نقله ما رواه البخاری و غیره بعدهٔ طرق عن أنس أنه قال: مات النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یجمع القرآن غیر أربعهٔ: أبو الدرداء، و معاذ بن جبل و زید بن ثابت و أبو زید، و فی روایهٔ أبی بن کعب بدل أبی الدرداء. عن المازری أنه قال: و قد تمسک بقول أنس هذا جماعهٔ من الملاحدهٔ و لا متمسّک لهم فیه فإنا لا نسلم حمله علی ظاهره سلمنا و لکن من أین لهم أن الواقع فی نفس الأمر کذلک سلمناه لکن لا یلزم من کون کل من الجم الغفیر لم یحفظه کله أن لا یکون حفظ مجموعه الجم الغفیر و لیس من شرط التواتر أن یحفظ کل فرد جمیعه بل إذا حفظ الکلّ الکل و لو علی التوزیع کفی، انتهی. أما دعواه أن ظاهر کلام أنس غیر مراد فهو مما لا یصغی إلیه فی الأبحاث اللفظیهٔ المبنیهٔ علی ظاهر اللفظ إلّا بقرینهٔ من نفس کلام المتکلم أو الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۶ ما ینوب منابه أما مجرد الدعوی و الاستناد إلی قول آخرین فلا- علی أنه لو حمل کلام أنس علی خلاف ظاهره کان من الواجب أن یحمل علی أن هؤلاء الأربعهٔ إنما جمعوا فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معظم القرآن و أکثر سوره و آیاته لا علی أنهم و غیرهم من الصحابهٔ جمعوا جمیع القرآن علی ما فی المصحف العثمانی و حفظوا ترتیب سوره و آیاته و ضبطوا موضع کل واحدهٔ واحدهٔ منها عن آخرها فهذا زید بن ثابت نفسه- و هو أحد الأربعهٔ المذکورین فی حدیث أنس و المتصدی للجمع الأول و الثانی کلیهما- یصرّح فی روایاته أنه لم یحفظ جمیع الآیات. و نظیره ما فی الإتقان عن ابن أشتهٔ فی المصاحف بسند صحیح عن محمد بن سیرین قال: مات أبو بکر و لم یجمع القرآن و قتل عمر و لم یجمع القرآن. و أما قوله: سلمناه و لکن من أین لهم أن الواقع فی نفس الأمر کذلک؟ فمقلوب علی نفسه فمن أین لهذا القائل أن الواقع فی نفس الأمر کما یدعیه و قد عرفت الشواهد علی خلاف ما یدّعیه؟ و أما قوله: إنه یکفی فی تحقق التواتر أن یحفظ الکل کل القرآن علی سبیل التوزیع فمغالطهٔ واضحهٔ لأنه إنما یفید کون مجموع القرآن من حیث المجموع منقولا بالتواتر و أما کون کل واحدهٔ واحدهٔ من الآیات القرآنیهٔ محفوظهٔ من حیث محلها و موضعها بالتواتر فلا و هو ظاهر. و نقل فی الإتقان عن البغوی أنه قال فی شرح السنّهٔ: الصحابهٔ جمعوا بین الدفتین القرآن الذی أنزله اللّه علی رسوله من غیر أن زادوا أو نقصوا منه شیئا خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فکتبوه کما سمعوا من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من غیر أن قدموا شیئا أو أخروه أو وضعوا له ترتیبا لم یأخذوه من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یلقن أصحابه و یعلمهم ما نزل علیه من القرآن علی الترتیب الذی هو الآن فی مصاحفنا بتوقیف جبریل إیاه علی ذلک و إعلامه عند نزول کل آیهٔ أن هذه الآیهٔ تکتب عقب آیهٔ کذا فی سورهٔ کذا. فثبت أن سعی الصحابهٔ کان فی جمعه فی موضع واحد لا فی ترتیبه الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۷ فإن القرآن مکتوب فی اللوح المحفوظ علی هذا الترتیب أنزله اللّه جملهٔ إلی السماء الدنیا ثم کان ینزله مفرقا عند الحاجهٔ و ترتیب النزول غیر ترتیب التلاوهٔ، انتهی. و نقل عن ابن الحصار أنه قال: ترتیب السور و وضع الآیات مواضعها إنما کان بالوحی کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: ضعوا آیهٔ کذا فی موضع کذا، و قد حصل الیقین من النقل المتواتر بهذا الترتیب من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و إنما أجمع الصحابهٔ علی وضعه هکذا فی المصحف، انتهی. و نقل أیضا ما یقرب من ذلک عن جماعهٔ غیرهم کالبیهقی و الطیبی و ابن حجر. أما قولهم: إن الصحابهٔ إنما کتبوا المصحف علی الترتیب الذی أخذوه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من غیر أن یخالفوه فی شیء فمما لا یدل علیه شیء من الروایات المتقدمهٔ و إنما المسلم من دلالتها أنهم إنما أثبتوا ما قامت علیه البینهٔ من متن الآیات و لا إشارهٔ فی ذلک إلی کیفیهٔ ترتیب الآیات النازلهٔ مفرقهٔ و هو ظاهر نعم فی روایهٔ ابن عباس المتقدّمهٔ عن عثمان ما یشیر إلی ذلک غیر أن الذی فیه أنه کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یأمر بعض کتاب الوحی بذلک و هو غیر إعلامه جمیع الصحابهٔ ذلک علی أن الروایهٔ معارضهٔ بروایات الجمع الأول و أخبار نزول بسم اللّه و غیرها. و أما قولهم: إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لقن الصحابهٔ هذا الترتیب الموجود فی مصاحفنا بتوقیف من جبریل و وحی سماوی فکأنه إشارهٔ إلی حدیث عثمان ابن أبی العاص المتقدم فی آیهٔ إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ «۱» و قد عرفت

مما تقدم أنه حدیث واحد فی خصوص موضع آیة واحدة، و أین ذلک من مواضع جمیع الآیات المفرقة. و أما قولهم: إن القرآن مکتوب علی هذا الترتیب فی اللوح المحفوظ أنزله اللّه إلی السماء الدنیا ثم أنزله اللّه مفرقا عند الحاجة ... إلخ، فإشارة إلی ما روی مستفیضا من طرق الشیعة و أهل السنّة من نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلی السماء الدنیا ثم نزوله منها نجوما إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکن (______________________________ ۱) النحل–

۹۰. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۸ الروایات لیس فیها أدنی دلالة علی کون القرآن مکتوبا فی اللوح المحفوظ منظما فی السماء الدنیا علی الترتیب الموجود فی المصحف الذی عندنا و هو ظاهر. و أما قولهم: إنه قد حصل الیقین بالنقل المتواتر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الترتیب الموجود فی المصاحف فقد عرفت أنه دعوی خالیة عن الدلیل و أن هذا التواتر لا خبر عنه بالنسبة إلی کلّ آیة آیة کیف و قد تکاثرت الروایات أن ابن مسعود لم یکتب فی مصحفه المعوذتین و کان یقول: إنهما لیستا من القرآن و إنما نزل بهما جبریل تعویذا للحسنین، و کان یحکهما عن المصاحف، و لم ینقل عنه أنه رجع عن قوله فکیف خفی علیه هذا التواتر طول حیاته بعد الجمع الأول.

نظرة عابرة فی روایات الإنساء

نظرة عابرة فی روایات الإنساء یتعلق بالبحث السابق البحث فی روایات الإنساء– و قد مرّت إشارة إجمالیة إلیها– و هی عدة روایات وردت من طرق أهل السنّة فی نسخ القرآن و إنسائه حملوا علیها ما ورد من روایات التحریف سقوطا و تغییرا. فمنها ما فی الدر المنثور عن ابن أبی حاتم و الحاکم فی الکنی و ابن عدیّ و ابن عساکر عن ابن عباس قال: کان مما ینزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الوحی باللیل و ینسئه بالنهار فأنزل اللّه: ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها «۱». و فیه عن أبی داود فی ناسخه و البیهقی فی الدلائل عن أبی أمامة أن رهطا من الأنصار من أصحاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخبروه أن رجلا قام من جوف اللیل یرید أن یفتتح سورة کان قد وعاها فلم یقدر منها علی شیء إلّا بسم اللّه الرحمن الرحیم و وقع ذلک لناس من أصحابه فأصبحوا فسألوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن السورة فسکت ساعة لم یرجع إلیهم شیئا ثم قال: نسخت البارحة فنسخت من صدورهم و من کل شیء کانت فیه. أقول: و القصة مرویة بعدة طرق فی ألفاظ متقاربة مضمونا. (______________________________ ۱) البقرة– ۱۰۶. الإعجاز و التحدی

فی القرآن الکریم، ص: ۱۶۹ و فیه عن عبد الرزاق و سعید بن منصور و أبی داود فی ناسخه و ابنه فی المصاحف و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صحّحه عن سعد بن أبی و قاص أنه قرأ: «ما ننسخ من آیة أو ننسأها، فقیل له: إنّ سعید بن المسیب یقرأ «ننسها» فقال سعد: إن القرآن لم ینزل علی المسیّب و لا آل المسیّب، قال اللّه: سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسی وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذا نَسِیتَ. أقول: یرید بالتمسک بالآیتین أن اللّه رفع النسیان عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیتعین أن یقرأ «ننسأها» من النسء، بمعنی الترک و التأخیر فیکون المراد بقوله ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ إزالة الآیة عن العمل دون التلاوة کآیة صدقة النجوی، و بقوله: «أو ننسأها» ترک الآیة و رفعها من عندهم بالمرة و إزالتها عن العمل و التلاوة کما روی تفسیرها بذلک عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و غیرهم. و فیه أخرج ابن الأنباری عن أبی ظبیان قال: قال لنا ابن عباس: أی القراءتین تعدّون أول؟ قلنا: قراءة عبد اللّه و قراءتنا هی الأخیرة. فقال: رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعرض علیه جبریل القرآن کل سنة مرة فی شهر رمضان و إنه عرضه علیه فی آخر سنة مرتین فشهد منه عبد اللّه ما نسخ ما بدل. أقول: و هذا المعنی مروی بطرق أخری عن ابن عباس و عبد اللّه بن مسعود نفسه و غیرهما من الصحابة و التابعین، و هناک روایات أخر فی الإنساء. و محصّل ما استفید منها أن النسخ قد یکون فی الحکم کالآیات المنسوخة المثبتة فی المصحف، و قد یکون فی التلاوة مع نسخ حکمها أو من غیر نسخ حکمها کما یظهر فی تفسیر قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ «۱». و قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آیَةً مَکانَ آیَةٍ «۲»، أن الآیتین أجنبیتان عن الإنساء بمعنی نسخ التلاوة، و تقدم أیضا فی الفصول السابقة أن

هـذه الروايـات مخالفـة لصـريح الكتـاب فـالوجه عطفهـا على روايـات التحريـف و طرح القـبيلين جميعـا «۳».

(____۱) البقرة- ۱۰۶. (۲) النحل- ۱۰۱.

(۳) انظر جميع ما تقدم فى المجلد الثانى عشر من الميزان ص ۱۱۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۷۰

الفهرس

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" "الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله" الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللّهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز" القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت – عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى. - من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ

کتبٍ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیهٔ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و... د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّهٔ "www.Ghaemiyeh.com و عـدّهٔ مَواقِعَ اُخـَرَ ه) إنتـاج المُنتَجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ و) الإطلاق و الـدَّعم العلمیّ لنظام إجابـهٔ الأسئلهٔ الشـرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظـام التلقائیّ و الیـدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS ح) التعـاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسهٔ "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ ی) إقامهٔ دورات تعلیمیّهٔ عمومیّهٔ و دورات تربیهٔ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلهٔ السَّنَهٔ المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی/"بنایهٔ"القائمیّهٔ "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریهٔ القمریّهٔ) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّهٔ الوطنیّهٔ: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظهٔ هامّهٔ: المیزانیّهٔ الحالیّهٔ لهذا المرکز، شَعبیّهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.



مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩